عنوان الكتاب : حماة الإســلام ج ٢

المؤلــف : مصطفى نجيب بك

سنة النشـر : ١٩٣٤

رقم العهـدة : د ٦٨٣٣

الـ ACC : ٩٩٥٢

عدد الصفحات : ١٦٥

رقم الفيلــم : ١٤

وزارة المعارف العمومية

حماة الإسلام

تأليف

المرحوم مصطفى نجيب بك

راجعه وهذّبه

محمد أحمد جاد المولى بك

المفتش بالوزارة

الجزء الثانى

A٠٢/٩٩٥٢ -

٢٠٣١ ٢١٦ -

٦٨/٦٨٢٢ -

حق هذه الطبعة محفوظ للوزارة

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٤

فهـــرس

الجزء الثـانى من كتاب حمـاة الإسلام

صفحة

نبذة تاريخية فى انتقال الخلافة للعباسيين	١
أبو مسلم الخراسانى	٨
أبو جعفر المنصور	١٨
المهدى أبو عبد الله محمد بن المنصور	٢٩
هرون الرشيد	٣٦
المأمون...	٤٥
المعتصم بالله	٦٥
المتوكل على الله جعفر...	٧٠
نبذة تاريخية	٧٨
الإمام أبو حنيفة النعمان	٨٣
القاضى أبو يوسف	٨٨
الإمام مالك	٩٤
الإمام محمد بن إدريس الشافعى	٩٩
الإمام أحمد بن حنبل	١٠٤
نبذة تاريخية فى مصر	١٠٧
المعز لدين الله	١١٣
عبد الرحمن بن معاوية	١٢٢
الحكم بن هشام	١٢٨
عبد الرحمن بن الحكم	١٣٢
عبد الرحمن الناصر	١٣٩
الحكم المستنصر بالله	١٤٨
ملوك الطوائف	١٥٥

بسم الله الرحمن الرحيم

نبذة تاريخية

قد أتينا فى الجزء الأول من حماة الإسلام ، على ذكر شىء يسير ، من سيرة بعض سادتنا (خلفاء بنى أمية ، و بنى مروان) وخبر بعض قوادها . ورأينا الآن أن ننتقل لسيرة بعض سادتنا (خلفاء بنى العباس) وقوادهم أيضا . وما ذلك عن قلة ولا سآمة ؛ و إنما رغبة فى الانتقال بالقارئ من عهد إلى عهد ، ومن مقصد إلى مقصد ، ولنلم بأعمال حماة الإسلام فى كل صُقع وناحية ، وليكون هذا العمل من جهة الدلالة على الخير الذى فعلوه فذلكة لهم .

إن الدولة الأموية أجل قدرا من أن تنحصر أخبار خلفائها وساستها فى هذا العدد اليسير ، أو يسع أخبارها مثل هذه السوانح ؛ فما هذا وأمثاله إلا غيض من فيض .

وقد حدثتنا النفس أن نجعل بين تراجم سادتنا خلفاء بنى أمية ، وسادتنا (خلفاء بنى العباس) نبذة تاريخية (وهى هذه) نبين فيها انتقال الدولة ، ثم نلحقها بترجمة أبى مسلم الخراسانى ، صاحب الدعوة لبنى العباس . فإن كنا أصبنا فيما فعلنا فلله الحمد ، و إن كنا أخطأنا فلسنا بمعصومين .

قال الله سبحانه وتعالى : "وتلك الأيام نداولها بين الناس" وقال حكيم وقد عزّى بعض من خرجت عنه مملكته : لو بقيت لغيرك ما وصلت إليك .

دالت الدولة للعباسيين ، فإذا هى كبرى الدول ، وأعظمها فى الدهاء والتحيل . ساست العالم سياسة ممزوجة بالدين والملك ، فأطاعها الصلحاء تدينا ، والباقون رغبة أو رهبة ، واستمرت الخلافة والملك نحوا من ستة قرون ، استقبلت فيها عظائم الأمور ، وطرّت عليها دول كدولة بنى بويه وخلها عضد الدولة ، فنا خسرو — ودولة بنى سلجوق ، وكبشها طُغرِل بك — ودولة خوارزم شاه ، وفيها مثل علاء الدين الذى اشتملت جريدة جنده على أربعمائة ألف مقاتل — ودولة الفاطميين بمصر ، وجندهم لم ير أكثف منه فضلا عن الخوارج ، والجموع الذين لم تبلغ استطاعتهم مناصبة عزة الملك ومعاندته ، وجدع أنفهم الشامخ عن متابعة الاستكبار بأقل الأذى وأقل السخط .

كل هذا لم يقو على إزالة ملكهم ولا محو أثرهم ، بل كان الملك من هؤلاء يجمع ويحشر ، ويقبل بالجند الجرار ، والخميس العظيم ، حتى يصل بغداد ، فإذا وصل التمس الحضور : فإن أذن له قبل الأرض بين يدى الخليفة ، وقصارى متمناه أن يوليه عملا ، أو يعقد له لواء ، أو يخلع عليه خلعة .

كانت لهم فى نفوس الناس منزلة لا تدانيها منزلة أبدا ، حتى إن السلطان (هولاكو) لما فتح بغداد ، وأراد قتل الخليفة (أبى أحمد المستعصم) ألقوا فى سمعه أنه متى قتل الخليفة اختل النظام فى العالم ، فاحتجبت الشمس ، وامتنع القطر .

أتت لها هذه العظمة ، وأصبح لها ذلك الاعتبار فى النفوس بما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أنه كان يجرى على لفظه الشريف ما معناه : البشارة بدولة هاشمية ، وزعم قوم أنه قال لعمه العباس (رضى الله عنه) : "إنها تكون فى ولدك" .

كانت النفوس متطلعة لهذه الدولة ، ينتظرونها صباح مساء ، يظنون فيها الخير أكثر مما كانوا فيه . فكان فيهم عطف عليها ، وحنان لها .

دولة كثيرة المحاسن ، جمة المكارم ، قامت فيها أسواق العلوم ، ونفقت فيها بضائع الأدب ، وعظمت فيها شعائر الدين ، ودرّت عليها الدنيا بخيرها ، وروعيت فيها الحرمات ، وحصنت الثغور . كانت الدولة مستمسكة بالدين ، كما كان على عهد الخلفاء : يحاسبون أنفسهم ، وينكر بعضهم على بعض إذا أخل بالعدل والمساواة ، ويحكمون بالشريعة ، ويتأدبون بآدابها .

بلغت حضارة الإسلام فى دار السلام مبلغا يندر مثله : فأين التفتّ وجدت جمالا ، وأنى نظرت رأيت مهابة وجلالا : أبهة ملوك ، ودعة زهاد ، ورخاء بال ، وارتقاء حال ، وانغماسا فى طيبات العيش ، وتصرفا واسعا فى التجارة ، وجمع طرائف الدنيا ، وتحرى العدل فى كل ذلك بأحكامه ، وأخذ الرعية بالحلم الواسع والسياسة بالكياسة .

اجتمعت العلماء والأدباء — والأمراء والندماء — بأبواب الخلفاء ولا سيما الرشيد الذى ألبس الدنيا جمالا ، وخلع عليها جلالا — بملكه الذى لم يسمع عن أحد من الملوك .

تسامت فيها الدور والقصور بالبهاء والرفعة ، وبنيت فيها المنازل الرحبة المزخرفة ، والأسواق والمرافق والمكاتب ، ووصل تعداد النفوس ببغداد لمقدار لم يكن فى مدينة من العالم .

قصدتهم الناس ، وطمعت فى مكارمهم الخلق ، حتى صار يضرب بهم المثل فى سعة العطاء ، وكان مع ذلك بيت المال فى عمران ، تشتمل خزائنه على العين والورق ، والأمتعة والكُسا والغلات ، وغير ذلك . والأمة بالغة مبلغها فى العلم والأدب والصناعة .

انتهى العز والرفاهة بأولى الأمر والجاه إلى أقصى غايته ، حتى اتخذت الإبر للجوارى من الذهب ، وصاغوا المسامير التى تدق فى مجالسهم لتعليق المناديل من الذهب ، وكسيت حيطان منازلهم بالوشى ، وتأنقوا فى جميع أدوات الزينة والمباهاة بها كالخيل والسلاح ، والآنية والجواهر ، والغلمان والقيان ، وجميع طيبات الزمان ، حتى ضرب المثل بهم فى الآفاق ، وجلبوا إلى بساتينهم طيبات الزهور من الهند والرياحين من الصين ، واتخذوا مقاعدهم فى حالات غريبة : فتراهم فى الشتاء كِنا كمينا ، وفى الحر ما بين الماء المتدفق غزارة من السقوف والحيطان ، والنابع من الأرض ، والمتفجر من جوانب المكان ، وكل ذلك فى أفواه صور : كصور السباع والثعابين ، وما شابه ذلك . وقد علقت المراوح فى سقوف المكان ، ووضعت الحبال التى تجر بها من الخارج ، فإذا حركت هب النسيم ، فترطبت الأجسام ، ولذ المنام .

لما أراد الله قيام هذه الدولة نما الشر ، وخلقت أسبابه ، وكثر الهرج والمرج ، وفتح بابه ، وثارت الفتن ، واضطرب الحبل ، واختلفت

الكلمة ، فظهر أبو مسلم بدعوة بنى العباس ، واجتمع عليه كل من له فى ذلك رأى من أهل خراسان .

انظر إلى البلاد وما كانت عليه : كان أهل الحجاز قليلين ، وأهل البصرة والكوفة وما حولها منحرفين عن الوحدة فى نظر الناس ؛ لخذلانهم وغدرهم فى سوابق ما جرى منهم ، ولم يبق إلا مصر والشام مع دولة بنى أمية .

ظهر أبو مسلم الخراسانى ، ومعه أصحابه (أصحاب الرايات السود) وحارب جند مروان تحت قيادة نصر بن سيار ، وهزمه .

يعجب الإنسان لهذه القلوب ، كيف سخرها الله لتنفيذ قضائه العادل وإبراز مكنون حكمته فى خلقه ! يقوم أبو مسلم بهذه الجيوش ، يبذلون المهج ، وينفقون الأموال ، ويجبون الخراج ، وينادون باسم إبراهيم الإمام محمد بن على بن عبد الله بن العباس ، وهو فى المسجد لا يفارقه ، وأهل خراسان لا يفرقون بين اسمه وشخصه ، وهو لا يدخل أيضا فى شىء من هذا ، فلا ينفق عليهم ، ولا يعطى أحدهم سلاحا ، وهم يحملون إليه الخراج .

ثم قدر الله أن يقتل هذا الإمام الذى قامت باسمه الدعوة ، كأنما فرغ من عمله ، وكأنما هو لا يصح أن يكون إلا مقدمة لغيره .

خاف أخواه (السفاح والمنصور) وجماعة من أقاربهما ، فهربوا ، وقصدوا الكوفة ، ونزلوا دارا أخلاها لهم أبو سلمة (حفص بن سليمان الخلال) من كبار الشيعة ، فدخلوها مع أتباعهم ، وكتموا سرهم ، واجتمعت الشيعة بهم ، وقويت شوكتهم .

قصد أبو مسلم دار الخلال ، وفيها السفاح والمنصور فقال : أيكم ابن الحارثية ؟ قال المنصور : هذا وأشار إلى السفاح، وكانت أمه حارثية، فسلم عليه بالخلافة ، ثم خرج السفاح ، ومعه إخوته وعمومته وأقاربه وأكابر الشيعة وأبو مسلم بين يديه إلى الجامع، فصلى وصعد المنبر، وأظهر الدعوة وخطب الناس ، وبويع له بالخلافة سنة ١٣٢ هـ .

ثم سلب الله ما كان لمروان (آخر خلفاء بنى أمية) من الصولة والقدرة حتى عصته الجند ، ونبذه قواده ، وكان جيشه فوق مائة ألف ، فلم يغن عنه شيئا ، وتوالى عليه الخذلان ، حتى انهزم ، وهرب ، وقتل فى قرية بوصير من قرى مركز الواسطى بمديرية بنى سويف وهو آخر الخلفاء فى هذه الدولة .

ولا بدّ لنا قبل ختم هذه السطور من ذكر شيء حفظه التاريخ لهذه الخلافة : وهو أن بنى أمية ، وإن كانوا أعطوا الملك حقه من الفتوح والتغلب ، والعدل فى القضاء ، وحفظ الأمن والراحة (وأنى لنا بمثل تلك الأيام) فإن الفوضى العلمية التى ظهرت فى أواخر دولتهم ، والأحاديث التى وضعت مختلقة على الرسول صلى الله عليه وسلم — فرقت الأمة إلى مذاهب مختلفة : كالخوارج ، والمعتزلة ، والجبرية . وأخرجت الخلافة عن رتبتها العلمية الدينية ، وأبعدتها عن حدها وعهدها ، وقام الملك أخيرا على العصبية ، فانحرفت عن العدالة العامة ، والعلم الدينى ، وهما أقوى أركان الخلافة ، وانتشر التفرق فى البلاد الإسلامية ، ولم يجمع القادة أمر الناس على عقيدة واحدة ، بل تركوهم مع هذا السيل الجارف .

لذلك تقوضت دعائم هذه الدولة ، وانقسمت إلى خلافتين : خلافة عباسية فى دار السلام ، وخلافة أموية فى الأندلس . قام بالأولى الإمام السفاح ، وبالثانية الإمام عبد الرحمن (حفيد الخليفة هشام الأموى) الذى فر من السفاح ، ولجأ إلى قبيلة زناتة (أعظم قبائل إفريقية) . ونحن ذاكرون شيئا من تاريخ خلفائها الذين هم خير خلفاء ، وناقلون سيرتهم الحسنة بعد الفراغ من تراجم من يعين عليه الله سبحانه وتعالى من الخلفاء العباسيين . والله أعلم .

ابو مسلم الخراسانى

هو عبد الرحمن بن مسلم وتسميه جماعة المؤرخين بصاحب دعوة بنى العباس ، أو صاحب الدولة العباسية ، أو بأمير آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

اختلفوا فى نسبه : فمن قائل إنه عربى ، ومن قائل إنه عجمى ، ومن قائل إنه كردى ، وقد قال هو عن نفسه : كفاك خبرى عن نسبى .

ترعرع أديبا ، ونشأ لبيبا ، وكان نشار إليه فى صغره لفرط ذكائه ووفور عقله .

ولد سنة مائة بأصبهان . وكان أبوه قد أوصى به إلى عيسى بن موسى السراج ، فحمله إلى الكُوفَة ، وهو ابن سبع سنين ، ثم جمع بينه و بين إبرهيم الإمام ، فقام معه حتى بلغ أشده ، ثم قال له غير اسمك وكنيتك (وكان يكنى أبا إسحاق) فتسمى (بعبد الرحمن وتكنى بأبى مسلم) . زعموا أن الإمام وجد لذلك شيئا فى الجفر ، وتحقق أن الأمر لا يتم على يده ، إلا بعد تغيير اسمه لعلامات رآها هو بها أعلم وأخبر .

ولعله إذ قدم على الإمام شاهد فيه عقلا وذكاء ودهاء فأعجب به ، فعقله عنده ، حتى كان ما كان من قيامه بالدعوة له فى خراسان .

يشترك أبو مسلم مع جماعة من الذين طالت أعمالهم ، وقصرت أعمارهم ؛ فإنه ولد سنة مائة ، والخليفة يومئذ سيدنا عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وكانت ولايته سبع سنين وعشرة أشهر ، دوخ فيها أهل الأرض ، وكان له يوم قتله المنصور سبع وثلاثون سنة ، فهو كالإسكندر الرومى صاحب الفتوح ، أو كابن المقفع حكيم الفرس والعرب ، أو سيبويه شيخ العربية ، أو أبى تمام أبى الشعراء ، أو إبرهيم النظام أمير علم الكلام وغيرهم مما لا يقطع العقل بجواز أن تكون أعمارهم القصيرة ظروفا لأعمالهم الخطيرة التى دونت عنهم .

كان أبو مسلم جميلا ، قصيرا ، أسمر ، حلوا ، نقى البشرة ، أحور العين ، عريض الجبهة ، حسن اللحية ، وافرها ، طويل الشعر ، طويل الظهر ، قصير الساق ، خافض الصوت ، فصيحا بالعربية والفارسية ، حلو المنطق ! راوية للشعر ، عالما بالأمور ، لم يرضاحكا ولا مازحا إلا فى وقته ولزومه ، ولا يكاد يغضب فى شىء من أحواله ، تأتيه الفتوح العظام ، فلا يظهر عليه أثر السرور ، وتنزل به الحوادث الجسام فلم يرمكتئبا ، و إذا غضب لم يستفزه الغضب ، كثير الغيرة ، شديد البطش ، شجاعا فاتكا ، ذا عقل ورأى ، وحزم وتدبير . كل هذه الخصال الجميلة ، والنعوت الشريفة — هيأت هذا المقدام الهمام لأن تتعلق به دعوة بنى العباس ، ويكون به إقامة دولتهم ، و إبادة دولة بنى أمية .

سئل أبو مسلم ، فقيل له : بم نلت ماأنت فيه من القهر للأعداء ؟ فقال : ارتديت الصبر ، وآثرت الكتمان ، وحالفت الأحزان

والأشجعان ، وساعدت المقادير والأحكام ، حتى بلغت غاية همتى ، وأدركت نهاية بغيتى .

ومما يدل على علو همته — أنه ورد حال الدعوة (نَيْسَابُور) ليلا على حمار وليس معه آدمى ، فقصد دار (الدهقان) ، فدق عليه الباب ، ففزع أصحابه وخرجوا إليه ، فقال لهم : إن أبا مسلم بالباب يطلب ألف درهم ودابة . فقالوا للدهقان ، فسألهم : فى أى زى وأى عدة هو ؟ فقالوا : وحده فى أدون زى . فسكت ساعة ، ثم أمر له بما طلب . فلما ملك وفتحت نَيْسَابُور قيل له : خذ ما تريد من مال (الدهقان) المجوسى فقال : إن له عند أبى مسلم يدا . ثم أتته هداياه فردها ولم يتعرض بشىء له ولا لإتباعه .

ومن نوادره أنه كان يشتغل عند خراز بالكوفة ، فبينما هو يخرز شيئا رأى الناس يتعادون فقال : ما الذى بهم ؟ قالوا : فيل دخل الكوفة . فقال : وأنى فى دخول فيل الكوفة من العجب ؟ العجب فى : أقلب دولة وأقيم أخرى .

بدأت الدعوة العباسية سنة اثنتين ومائة على ما استقصيناه ، وكان أول ظهورها بخراسان (موطن أبى مسلم) ، وكأنما قارنها فى المولد ليشبا معا وينشآ كذلك .

اختلفوا فى أول من قدم خراسان : فمن قائل : إن ميسرة العبدى وجه رسله بالدعوة من العراق إليها ، ثم وشى بهم عمرو بن بجير بن ورقاء السعدى إلى سعيد عاملها ، فقال : إن ههنا قوما ظهر منهم كلام فى الخلافة

وأعلن بهم فسألوهم ، فقالوا : نحن من التجار وإن لنا فى أنفسنا وتجارتنا شغلا عن هذا . وجاءت أناس فكفلوهم فخلى سبيلهم .

ومن قائل : إن أول من دخل خُرَاسَان الدعاة الذين وجههم (بكير بن ماهان) وفيهم أبو عكرمة ، وأبو محمد الصادق وغيرهم سنة سبع ومائة ، ومن قائل : إنهم دعاة (محمد بن على بن عبد الله بن عباس) ، وفيهم زياد أبو محمد مولى هَمَذَان . وقد اتفق أصحاب الروايتين على أن ذلك وقع فى هذه السنة ، وفى ولاية أسد بن عبد الله القسرى على خراسان .

أساء هؤلاء الدعاة سيرة بنى أمية ، وأطعموا الطعام على حب بنى العباس . وصارت المناظرة فى تفضيل آل على وآل عباس ، حتى بلغ أمرهم أسدا ، فأحضر زيادا ، وقال : ما الذى بلغنى عنك ؟ قال : الباطل ، إنما قدمت فى تجارة وفرقت مالى على الناس ، فإذا اجتمع خرجت ، فأمره بالخروج فلم يخرج ، وعاد إلى أمره فخاف منه أسد ، وأحضره وقتله بالسيف مع عشرة من أصحابه . قالوا : ولما بلغ الخبر محمد بن على بن عبد الله بن عباس قال : الحمد لله الذى صدّق دعوتهم ومقالتهم وقد بقيت منهم قتلى ستقتل ثم وجه (بكير بن ماهان) سنة ثمان عشرة ومائة عمار بن يزيد واليا على شيعة بنى العباس ، فنزل مرو وغير اسمه وتسمى (بخداش) ، ودعا إلى (محمد بن عبد الله بن عباس) فسارع إليه القوم وأطاعوه ثم أباح لهم عدم الصلاة والصوم ودعا بعضهم إلى ما يشين وقال : إن ذلك بأمر محمد بن على فظفر به أسد والى خراسان ، وسمل عينيه وقطع لسانه فبلغ ذلك محمد بن على فترك مكاتبتهم ومراسلتهم ، فبعثوا إليه سليمان بن كثير يعلمه أمرهم ، فصرفه إلى خراسان ، وأرسل معه كتابا مختوما ، ففضوه فلم يروا فيه إلا (بسم الله الرحمن الرحيم) فعظم عليهم ذلك ، وعلموا أنهم خالفوه ، وبعث إلى النقباء أيضا بعصى مضببة بعضها بالحديد وبعضها

بالنحاس . وأخذ كل واحد من النقباء عصا وهى إشارة لما كانوا عليه من مخالفته ، و رجوعهم إلى طاعته[1] .

ثم أجمعوا أمرهم ، وقاموا بالدعوة ، وابتدأ اضطراب حبل بنى أمية ، وهاجت عليهم الفتنة ، وخرج سليمان بن هشام بن عبد الملك من الحبس ، وأخذ ما كان بعمان من الأموال ، وأقبل إلى دمشق يلعن الوليد و يرميه بالكفر .

ثم دخلت سنة سبع وعشرين ومائة ، وهى أول سنى الأعمال الجسيمة ، توجه فيها سليمان بن كثير ، ومعه أبو مسلم و جماعة من الشيعة إلى مكة والتقوا بإبرهيم الإمام ، ودفعوا إليه ما كانوا يحملون من المال والمتاع ، فكتب كتابا لأبى مسلم يأمره فيه بالعمل ، و وجهه إلى خراسان ، وعمره إذ ذاك نحو من أربع وعشرين سنة . قال فى كتابه للأصحاب والشيعة :

أما بعد فإنى قد أمّرت عليكم أبا مسلم فاسمعوا له وأطيعوا ، أمرته على خراسان وما غلب عليه بعد ذلك . فكبر على شيوخ الشيعة قبول إمرته لصغر سنه ، وخرج بعضهم إلى مكة ليلاقوا الإمام فإذا به مجمع رأيه فى أبى مسلم وألزمهم طاعته فأطاعوه . ثم كتب إلى أبى مسلم : إنك رجل منا آل البيت ، احفظ وصيتى ، انظر هذا الحى من اليمن ، فالزمهم واسكن بين ظهرانيهم ؛ فإن الله لا يتم هذا الأمر إلا بهم ، واتهم ربيعة فى أمرهم . وأما مضر فإنهم العدو القريب الدار ، فاقتل من شككت فيه ، و إن استطعت ألا تدع بخراسان من يتكلم بالعربية فافعل ، ولا

(١) العصى المضببة بالنحاس أو الحديد هى علامة النقيب إلى الآن فى طرق الصوفية ولعلها من هنا أخذت .

تخالف هذا الشيخ (يعنى سليمان بن كثير) ولا تعصه ، و إذا أشكل عليك أمر فاكتف به منى .

قام أبو مسلم بالدعوة حق قيام ، ولم يبق قلبا يعطف على بنى أمية ، ولا بلدا إلا أوحشه منهم ، فغير النيات ، و بدل الضمائر والأفكار — بما بثه وأظهره من حجج الهاشمية وما كشف من معايب الأمويين ، فلم تلبث خراسان حتى لزمت الطاعة وتنادت بالدعوة لبنى العباس ، وجاءت من كل الأرجاء والمواقع .

قام أبو مسلم مع النقباء والنجباء ، وبث الدعاة و برز للغالبة والمباراة ، فأزال ملك أعدائه عن مستقره ، وثبت ملك أوليائه فى نصابه ، فشفى الله صدورا وأدرك أبو مسلم بسيفه ثارا : فتح البلاد ، وأقام أصل الدولة ، وفلح مغرس هذه الشجرة وغرسها وثبتها ، وقام مقام أصحاب الدعوة بوتيرة واحدة ومنهاج غير مشترك ، ودان بالطاعة مع أصحابه يقتلون فيها و يموتون عليها .

أصحابه الخراسانية أصحاب الرايات السود ، كانوا أصحاب صدور سليمة ، وقلوب باسلة لم تفسدها الأهواء ، ولم تخامرها الأدواء ، ولم تعتقبها البدع ، وهم خير جند لخير قائد ، فكأنهم لم يخلقوا إلا لقلب الدول وتأييد السلطان .

ثم كانت سنة تسع وعشرين ومائة ، فكتب إليه إبرهيم الإمام ، يستدعيه ليسأله عن أخبار الناس ، فسار نحوه فى النصف من جمادى الآخرة

مع النقباء . فلما وصلوا قُومَس[1] وافاه كتاب الإمام يقول له فيه : إنى قد بعثت إليك براية النصر ، فارجع من حيث لقيك كتابى ، ووجه إلىّ قطبة بما معك يوافينى . فانصرف أبو مسلم إلى خراسان ، وذهب قطبة إلى الإمام بما معه من الأموال والعروض ، ونزل أبو مسلم قرية من قرى مرو ، يقال لها مفنون ولبس السواد ، وبعث النقباء والنجباء يدعون لطاعة بنى العباس ، ودارت رحى الحرب والقتال ، وانتقل أمرهم من القول إلى الفعل ، وأخذت البيعة إلى الإمام علانية ، ثم عقد اللواء الذى بعثه الإمام إليه والذى يدعى (الظل) والراية التى تدعى (السحاب) ، وأمر بإشعال النيران للشيعة ، وهى علامة اجتماعهم فاجتمعوا وتأولوا لذلك كلاما فقالوا : (الظل والسحاب) يعنى أن السحاب يطبق الأرض وأن الأرض كما لا تخلو من الظل — كذلك لا تخلو من خليفة عباسى إلى آخر الدهر .

ثم قدمت الدعاة على أبى مسلم من كل فج وناحية ، وأتته الرجال راجلين وركبانا يكبرون من ناحيتهم فيجيبهم غيرهم من ناحية أخرى ، فتربص بهم مكانه ، وكان عيد الفطر فنصبوا منبرا بالعسكر[2] ، وأمر سليمان بن كثير أن يصلى به و بالشيعة ، و يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذان ولا إقامة ، وكان بنو أمية يبتدئون بالخطبة قبل الصلاة و بالأذان والإقامة مع تغيير كبير فى عدد التكبيرات واختلاف فى كونها تباعا ، ففعل ثم انصرفوا بعد الصلاة إلى طعام فأكلوه ، وكتب أبو مسلم إلى نصر بن سيار قائد جيوش بنى أمية كتابا قال فيه :

(١) قومس بالضم وفتح الميم صقع كبير بين خراسان و بلاد الجبل .

(٢) عن ياقوت .

إلى نصر :

أما بعد فإن الله تباركت أسماؤه عيّر أقواما فى القرآن فقال : "وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا ، استكبارا فى الأرض ومكر السيئ ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله . فهل ينظرون إلا سنة الأولين ، فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا " .

فتعاظم نصرٌ الكتابَ ، وفقأ له إحدى عينيه ، وقال : هذا كتاب ما له جواب .

ثم وجه أبو مسلم أشياعه : مثل مالك بن الهيثم الخزاعى ، وحازم بن خزيمة والتقوا بعسكر بنى أمية وجيوشها ، وذهب غير أولئك إلى جهة أخرى ، فشرّدوهم عن المواقع والأماكن ، وقتل من قتل منهم : كشيبان الخارجى من أكابر القواد ، والكرمانى وابنيه . ودخل أبو مسلم (مَرْو) وصفت له على يد أبى منصور طلحة بن زريق أحد النقباء ، وكان عالما ملحنا بالحجة ، وهو أحد الاثنى عشر نقيبا المنتخبين من السبعين الذين استجابوا لرسول محمد بن على فى أول الأمر .

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين ومائة التى بويع فيها أبو العباس عبد الله ابن محمد بن على بن عبد الله بن العباس الملقب بالسفاح بسبب قبض مروان الحمار على إبرهيم بن محمد الإمام وحبسه وقتله (كما هو مبسوط فى أماكنه من كتب التاريخ) ، وكان الإمام قد نعى نفسه إلى أهل بيته قبل ذلك ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه أبى العباس عبد الله بن محمد والسمع والطاعة له ، وأوصى إلى أبى العباس الملقب بالسفاح بالخلافة ، فلما

وقع ذلك ساروا فقدموا الكوفة مع شيعتهم فأنزلهم أبو سلمة الخلال دار الوليد بن سعد مولى بنى هاشم (كما تقدم الكلام فى النبذة التاريخية) وجاء القواد وسلموا عليه بالخلافة ، ثم لبسوا السلاح، وطلبوا خروجه واصطفوا له ، وأتوا بالدواب فركب برذونا أبلق ودخلوا دار الإمارة ، ثم خرج إلى المسجد ، فخطب وصلى بالناس ، ثم وافت الأخبار بهزيمة مروان (بالزَّاب) ، ثم التقى به عبد الله بن على عم السفاح فهزمه الهزيمة الكبرى وفر إلى مصر وقتل .

قامت الدولة العباسية مبتدئة بأول خلفائها أبى العباس السفاح ، فأقر أبا مسلم على خراسان، ولا زال بها لا يفارقها إلى سنة ست وثلاثين ومائة، ثم كتب إليه أبومسلم يستأذنه فى القدوم عليه والحج ، فأذن له ووافق ذلك طلبا من أبى جعفر المنصور أيضا بالحج ، فأذن له فلما كان فى الطريق حمل معه ذكر أبى جعفر ؛ لأن أبامسلم كان يكسو الأعراب و يصلح الآبار والطريق ، وكانت الذكرى له . ولما صدر عن الموسم تقدم فى الطريق ، ثم أتاه خبر موت السفاح ، فكتب إلى أبى جعفر يعزيه ، ولم يهنئه بالخلافة . كل هذا وأمثاله جعل أبا مسلم فى نظر المنصور ممن أحسن مبتدأ وأساء معقبا ، وقد غلب عليه سوء الظن ، حتى رجح فيه قبح الباطن على حسن الظاهر ، وخبث السريرة وفساد النية على حسن الخدمة والبلاء الحسن ، فأمضى فيه حكمه وقتله بعد أن استدعاه وأدناه ، وجالسه مجلسا كثر فيه الأخذ والرد كما سيأتى ذلك فى ترجمته إن شاء الله .

موعظة

قال الإمام الفخرى : لما قدّر الله انتقال الملك إلى بنى العباس ، هيأ لهم جميع الأسباب : فكان إبرهيم الإمام ابن محمد بن على بن عبد الله ابن العباس بالحجاز أو بالشام جالسا على مصلاة ، مشغولا بنفسه وعبادته ، ومصالح عياله ، ليس عنده من الدنيا طائل ، وأهل خراسان يقاتلون عنه و يبذلون نفوسهم وأموالهم دونه وأكثرهم لا يعرفه ، ولا يفرق بين اسمه وشخصه . وانظر إلى إبراهيم الإمام وهو بتلك الحال من الانقطاع بداره ، واعتزال الدنيا وهو بالحجاز أو بالشام وله مثل هذا الجند العظيم فى خراسان، يبذلون نفوسهم دونه ، لا ينفق عليهم مالا ، ولا يعطى أحدهم دابة ولا سلاحا ، بل هم يجبون إليه الأموال ، ويحملون إليه الخراج فى كل سنة .

ولما قدر الله تعالى خذلان بنى مروان ، وانقراض ملك بنى أمية — كان مروان خليفة مبايعا ، ومعه الجنود والأموال والسلاح والدنيا بأجمعها عنده والناس يتفرقون عنه ، وأمره يضعف ، وحبله يضطرب ، فما زال يضمحل حتى هزم وقتل وأكلت لسانه هرة .

فتعالى الله .

"قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شىء قدير . تولج الليل فى النهار ، وتولج النهار فى الليل ، وتخرج الحى من الميت ، وتخرج الميت من الحى ، وترزق من تشاء بغير حساب" .

أبو جعفر المنصور

نستفتح الخلافة العباسية باسم هذا الخليفة العظيم ثانى الخلفاء العباسيين لأسباب : منها أن جماعة المؤرخين قالوا : إن فى بنى العباس فاتحة وواسطة وخاتمة . والفاتحة عندهم المنصور ، والواسطة المأمون ، والخاتمة المعتضد . ومنها أن مدة السفاح لم تطل ، ومنها أن هذا الخليفة أحق بالتقديم ؛ لأنه جمع أشتات الفضائل بما أعطاه الله من القوتين العلمية والحربية .

هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن عباس . ولد فى شهر ذى الحجة سنة خمس وتسعين ، وأدرك جده ، ولم يرو عنه ، وروى عن أبيه وعن عطاء بن يسار . وبويع له بالخلافة فى شهر ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة . وتوفى لست خلون من ذى الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة بِبِئْرِ مَيْمُون ، وهو محرم ، ودفن بمقبرة المَعْلَاة والمسافة بينهما ثلاثة أميال ، فمدة خلافته اثنتان وعشرون سنة ومدة عمره ثلاث وستون سنة .

كان أسمر نحيفا خفيف العارضين ، وقورا كامل العقل ، جيد المشاركة فى العلم والأدب ، فقيها فصيحا بليغا مفوّها خليقا بالإمارة وجبروتها ، مدبرا لأمور المملكة .

قسم زمانه وساعاته قسمة حكيم : فكان صدر نهاره للأمر والنهى ، والولايات والعزل ، وشحن الثغور والأطراف ، وتأمين السبل ، والنظر

فى الخراج والنفقات ومصلحة الرعية والتلطف بسكونهم وهدوئهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلى العشاء الآخرة جلس للنظر فى كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره ، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشه ، فإذا مضى الثلث الثانى قام فتوضأ وصلى حتى يطلع الفجر ، فيخرج للناس فيصلى ثم يدخل إيوانه .

وكان لحبه العدل واستقامة أمور المملكة يستقل ذلك ، وقد سمع منه أنه قال : ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر : قاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وصاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، وصاحب خراج لا يظلم الرعية . ثم عض على أصبعه ، وتأوه فقيل : ما هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلىّ خبر هؤلاء على الصحة .

نمت فى عصره القوة العلمية ؛ فقد كان فيه كثير من الأئمة الأجلاء : منهم الإمام أبو حنيفة ، والإمام مالك بن أنس ، وكثر فيه تدوين علماء المسلمين العلوم كالحديث والتفسير : فصنف ابن جريج بمكة ، ومالك الموطأ بالمدينة ، والأوزاعى بالشام ، وابن أبى عروبة وحماد ابن سلمة وغيرهما بالبصرة ، ومعمر باليمن ، وسفيان الثورى بمكة وصنف ابن إسحاق المغازى ، وابتدئ تدوين العلم وتبويبه ، ودونت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس . وكان الأئمة فى هذا العصر يعلمون العلوم إملاء من حفظهم .

هو أول خليفة ترجمت له الكتب السريانية والأعجمية إلى العربية كإقليدس وكليلة ودمنة وكان هو أعلم الناس بالحديث والأنساب مشهورا بطلبهما . وكان بليغا لسنا فصيحا : أخرج الأصمعى وغيره أنه

صعد المنبر فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به ، وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . فقام إليه رجل فقال : يا أمير المؤمنين ، اذكر من أنت فى ذكره ، فقال : مرحبا مرحبا لقد ذكرت جليلا ، وخوفت عظيما ، وأعوذ بالله أن أكون ممن إذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم ، والموعظة منا بدأت ، ومن عندنا خرجت ، وأنت ياقائلها فأحلف بالله ما الله أردت بها ، ولكن أن يقال قام فقال فعوقب فصبر وأهون بقائلها لو هممتُ ، واهتبلها إذ عفوت . إياك و إياكم معشر المسلمين وأختها . ثم عاد إلى خطبته فقال : (وأشهد أن محمدا عبده ورسوله) فكأنما يقرؤها من قرطاس .

كان المنصور من أعظم الخلفاء ذوى الآراء التامة الصائبة ، وأعلمهم وأعقلهم وأحزمهم وأشجعهم ، وله من التدبيرات السديدة ما يستحق أن يدون ؛ ليحتذى و يؤخذ منه و يقاس عليه .

ومن أغرب ما يؤثر عنه مما يدل على تفطنه ودقته أنه لما أدركته الوفاة قال لابنه المهدى : يا بنى ، إن فى بيت المال ما لا أخذته العمال من أصحاب الجنايات على وجه المصادرة تأديبا لهم وزجرا ، ولقد أفردت كل شىء منه وكتبت عليه أسماء أصحابه ، فربما كان منهم مايوجب رده إليهم .

كان أعلم الناس بضبط أحوال الممالك ، وترتيب القواعد ، و إقامة ناموس كل شىء : غالب الدهر والأيام حتى كف عاديهما عنه وتوطدت أركان الممالك له ، وعظمت هيبته فى النفوس ، ولولا بأسه وشدته ما دانت الأمصار إليه بعيدها وقريبها ، وأصبحت خلافته قويمة البنيان

وآل مروان لم تبل رممهم ، وآل أبى طالب لم تغمد سيوفهم ، والناس قد رأتهم أمس على حال واليوم أصبحوا عليهم خلفاء .

كان حازما لا يعرف اللهو ، ولا ما يشبه اللهو ، ولم ير فى داره ذلك . قال سلامة الأبرش : كنت أخدم المنصور داخلا ، وكان من أحسن الناس خلقا فى الخلوة ، بل من أشد الناس احتمالا لما يكون فيها من عبث الصبيان ، فإذا خرج إلى المجلس العام ارتدّ لونه ، وكان مع ما وهبه الله من السؤدد والمجد فقير النفس ، فكان يرقع ثوبه ، و يلبس القميص الخشن .

كان شجاعا صارما مقداما لا يرهب الموت ، يقظا لا يفلت عدوه ، قال يزيد بن عمر بن هبيرة : ما رأيت رجلا فى حرب أو سلم أمكر ، ولا أنكر ، ولا أشد تيقظا من المنصور ، حاصرنى تسعة شهور ، ومعى فرسان العرب فجهدنا الجهد الجهيد فلم ننل من جنده شيئا ، وحصرت وما فى رأسى شعرة بيضاء ، وانقضى الحصار وليس فيها سوداء .

يعد مخاطرا من فرط شجاعته ، حتى قيل : إنه أخطأ فى ثلاث : قتل أبى مسلم وهو فى جماعة قليلة ، وحين خرج إلى الشام ولو اختلف سيفان بالعراق لذهبت الخلافة ، و يوم الراوندية ولو أصابه سهم لدكت المملكة ، وغدا الكل أثرا بعد عين . فأما قتله لأبى مسلم وخروجه إلى الشام فقد يتفق ذلك لبعض الأنام ولكن المعجز يوم الراوندية :

وصفوة الخبر أن جماعة من أهل خراسان يبلغ عددهم ستمائة نفس يقولون بالتناسخ على رأى أبى مسلم أحاطوا بقصره ، وقالوا : أنت إلهنا فغضب وقال : يدخلهم الله النار فى طاعتنا ولا يدخلهم الجنة فى معصيتنا وحبس رؤساءهم ، فعمدوا إلى نعش فارغ وحملوه كأن به جنازة ، وقصدوا

السجن، فألقوه أمامه وكسروه وأخرجوا من فيه، وقصدوا القصر، فخرج بنفسه ماشيا [1] وصاحت الناس وغلقت أبواب المدينة ، وما زال حتى جىء له بدابة فركبها، ثم جاء معن بن زائدة وأخذ بلجامها، وصار يقاتل قتالا ما رئى قبله ، حتى طفئت الفتنة .

فعن أى ملك أو سلطان يؤثر ذلك ؟ لا ندرى . على أن هذه الأمور طالما كانت سببا لضياع البلاد . تقوم الثورة المدبرة، فتنعقد يد الأمير عن التصرف فيها فتتسع (ومعظم النار من مستصغر الشرر) فضلا عن أن تلم بطرف أجنبى ، فلا تلبث المدينة أو المملكة إلا وقد أصبحت مغنما للعدو كما رأينا ذلك .

وقد كانت هذه الواقعة سببا لبنائه بَغْدَاد ؛ لأنه كره الإقامة بِالْهَاشِمِيَّة فبناها بعد ما أجمعت جماعة الحكماء على فضل مكانها : دجلة والفرات محيطان بها ، والميرة تأتى إليها فى دِجْلَة من ديار بكر ، ومن البحر والهند والصين ، وفى الفرات من الرَّقَّة والشام وخراسان و بلاد العجم ، متوسطة بين الْبَصْرَة والكوفة وَوَاسِط والْمَوْصِل والسَّوَاد ، والساكن فيها قريب من البحر والبر والجبل، وهى مدينة مباركة قالوا : إنها لم يمت فيها خليفة .

ابتدأ فيها سنة خمس وأربعين ومائة، وأتمها سنة تسع وأربعين ومائة ، وجعلها شبه دائرة وقصره فى مركزها ، قالوا : ليكون قربه من جميع الناس واحدا ، فصرف عليها أربعة ملايين وثمانمائة ألف درهم ؛ و بلغ من دقة أمره فى حسابها أنه تقاضى البواق لغاية خمسة عشر درهما (وهكذا من أخذ حقه أعطى حق غيره) .

ثم بنى الرُّصَافَة وشيّدها .

(١) لأنه لم يكن فى القصر دابة . ومن ذلك اليوم ربط فرس النوبة بدور الخلفاء .

أحاطت بخلافته الفتوق والحوادث من كثرة الخارجين عليه ، فافنت الفرسان ، وقتلت الأنصار ، وغلت يد الخلافة ، وأذاقت الأمة بأسها وأتلفت الحصون والملاجئ ، و بددت المعاقل .

أدته حالة الملك ورغبته فى استقامته باستئصال جراثيم الفساد إلى أن هجم بالعقوبة ، وتناسى العفو ، فكان جبروت خلافته شديدا ، ولم تفتح فى مدة خلافته إلا طبرستان ؛ لأن الحروب مع الخوارج غلبت عليه .

دخل فى طاعته ممالك الإسلام التى افتتحها الصحابة (رضى الله عنهم) و بنو أمية ، إلا الأندلس بقيت بيد أهلها، يتقاتلون على الإمارة حتى قدم عليهم عبد الرحمن الداخل فأصبح للإسلام دولتان تتنازعان : الدولة العباسية فى الشرق ببغداد ، والأموية فى الغرب بالأندلس .

ومن فضائل هذا الخليفة أنه وسع المسجد الحرام مما يلى دار الندوة ، وحصل بينه و بين ملك الروم الفداء ، واستنقذ أسرى المسلمين وحج حجة أغدق فيها على الناس ، حتى سميت عام الخصب ، ووقع فيها بينه و بين رجل من الحديث ما فيه مزدجر ، ومن العظة ما لا يتصور وقوعه ، والعجب أن مثل أبى جعفر يتقبله منه مع جبروته، ولا تأخذه أنفة الملك، و إنا ذاكروه ولو طال ؛ فإنه مما يطرز بالدرر واللآلئ :

قالوا : حج أبو جعفر ، وكان يخرج إلى الطواف فى آخر الليل ، يطوف و يصلى لا يعلم به أحد، فخرج ذات ليلة سحرا ، و بينا هو يطوف سمع من يقول : اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الظلم، فأسرع المنصور حتى ملأ مسامعه منه، ثم خرج

ودعاه وسأله عن الذى سمعه فقال له : إن أمّنتنى على نفسى أنبئك ، فأمنه وأدناه وسأله فقال :

يا أمير المؤمنين ، إن الذى دخله الطمع حتى حال بين الحق وأهله ، وما ظهر من البغى والفساد فى الأرض — إنما هو أنت . قال : ويحك كيف يدخلنى الطمع وكل ما أريده فى قبضتى ! قال : وهل دخل على أحد من الطمع ما دخل عليك يا أمير المؤمنين ؟ إن الله عز وجل استرعاك أمور المسلمين وأموالهم ، فأغفلت أمورهم ، واهتممت بجمع أموالهم ، وجعلت بينك و بينهم حجابا من الجص والآجر ، وأبوابا من الحديد ، وصحبة معهم السلاح ، واتخذت وزراء وأعوانا بفجرة ، إن نسيت لم يذكّروك ، و إن أحسنت لم يعينوك ، وقويتهم على ظلم الناس بالأموال والرجال والسلاح ، وأمرت ألا يدخل عليك من الناس إلا فلان وفلان ، ولم تأمر بصلة المظلوم والملهوف والجائع والعارى ، وما أحد إلا وله فى الأموال حق ، فلما رآك الذين استخلصتهم وجعلتهم يشرفون على رعيتك ، وأمرت ألا يغيبوا عنك — تجبى المال ولا تقسمه — قالوا : قد خان الله فما بالنا لا نخونه ؟ وائتمروا على كتم أخبار الناس عنك إلا ما أرادوا ، لا يخالف أمرهم عامل إلا أقصوه ، حتى تسقط منزلته . فلما انتشر ذلك عظمهم الناس فهابوهم ، وصانعهم عمالك بالهدايا والأموال ؛ ليقووا بها على الظلم . ثم فعل ذوو الثروة والقوة من رعيتك لينالوا ظلم من دونهم ، وامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك ، وأنت غافل . و إن جاء متكلم حيل بينه و بين الدخول إليك ، و إن أرادوا رفع قصة إليك وجدوك قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم ، فإن جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك سألوا

صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته إليك ، فإن صرخ ضرب ، وأنت تنظر ولا تنكر ، ولا تغير فما بقاء الإسلام وأهله على هذا !

كان بنو أمية لا ينتهى إليهم مظلوم إلا رفعت مظلمته ، ولقد كان الرجل يأتى من أقصى الأرض ، حتى يبلغ باب سلطانهم ، فينادى يا أهل الإسلام فيبتدرونه ، فيرفعون مظلمته إلى سلطانهم ، فينتصف له . وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى أرض الصين ، وبها ملك فقدمتها مرة ، وقد ذهب سمع ملكهم فجعل يبكى ، فقال له وزيره : مالك تبكى لا بكت عيناك ! فقال : أما أنا فلست أبكى على المصيبة إذ نزلت بى ، ولكن على عدم سمع صراخ المظلوم بالباب أبكى . ولئن ذهب سمعى إن بصرى لم يذهب ، نادوا فى الناس ألا يلبس ثوبا أحمر إلا المظلوم . فكان يركب الفيل فى طرفى النهار ، لعله يرى مظلوما فينصفه .

هذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله تعالى ، قد غلبت عليه رأفته بالمشركين ورقته على شح نفسه فى ملكه ، وأنت مؤمن بالله عز وجل ، وابن عم نبيه ، ألا تغلبك رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ، فإنك لا تجمع الأموال إلا لواحدة من ثلاث : إن قلت أجمعها لولدى فقد آتاك الله تعالى هذا الطفل الصغير وما له على الأرض مال ، وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه ، ولا يزال الله عز وجل يلطف بذلك الطفل ، حتى تعظم رغبة الناس إليه ، ولست الذى يعطى ولكن الله تعالى يعطى . و إن قلت أجمع المال لتشييد سلطانى فقد أراك الله عز وجل عبرا فيمن كان قبلك ، ولم يغن عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وما أعدوا من السلاح والكراع ، وما ضرك وولد أبيك عبد الله بن عباس ما كنتم فيه من الضعف حين أراد الله عز وجل بكم ما أراد . و إن قلت أجمع المال لطلب غاية هى أجسم من

الغـاية التى أنا فيها فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بالعمل الصالح . يا أمير المؤمنين ، هل تعاقب من عصاك من رعيتك بأشـد من القتل ؟ قال : لا. قال: فكيف تصنع بالمـالك الذى خوّلك ما أنت فيه من ملك الدنيا ، وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ، ولكن يعاقب من عصاه بالخلود فى العذاب الأليم ، وهو الذى يرى منك ما خفى فيك ، فما تقول إذا انتزع ملك الموت الدنيـا من يدك ، ودعاك إلى الحساب ، هل يغنى عنك ما كنت فيه شيئا؟ !فبكى المنصور حتى ارتفع صوته ! ثم قال : ليتنى لم أخلق ولم أك شيئا . كيف احتيالى فيما خوّلت ولم أر من الناس إلا خائنا . فقال : يا أمير المؤمنين، عليك بالأئمة الأعلام المرشدين قال : ومن هم ؟ قال : العلمـاء . قال : فروا منى . قال : هربوا مخافة أن تحملهم على ما ظهر من طريقك ، ولكن افتح الأبواب ، وسهل الحجـاب ، وانتصر للمظلوم ، وامنعه ، وخذ الشىء ممـا حل وطاب ، واقسمه بالعـدل وأنا ضامن لك أن يأتيك من هرب منك ، فيعاونك على صـلاح أمرك ورعيتك . فقال المنصور : اللهم وفقنى أن أعمل بما قال هذا الرجل .

ولا عجب من سكوت أبى جعفر وإصغائه لمقـال الرجل ، وطلبه التوفيق فى العمل بمـا قال ؛ لأنه يتحرى الحق من الباطل ، ويعلم صحـة ما يقال له ، وينزل إليه وهو متسنم المعالى ، ويتضاءل أمامه كما سمعت .

أكبر فخر للغربى على الشرقى الآن — أن يفخر بأن فى أهل الغرب من الرجال من يبادر ملوكهم بكلمة الحق ، وقولة الصدق ، وأن هؤلاء الملوك لا يصدفون عن النصيحة ، ولا يأنفون منها ما دامت عونا لهم على

طرق الحق واكتساب الخير ، ولكن كل الذى سمعناه عنهم دون هـذا الموقف الذى ذهبت فيه معانى الخـلافة من القهر والقوة والقـدرة ، واستمعت فيه النصيحة بما يجب لها من الخضوع والخشوع .

وأعجب من هـذا ما أخرجه عبد الله بن صالح قال : كتب المنصـور إلى سوار بن عبد الله قاضى البصرة بأن ينظر فى الأرض التى تخاصم فيهـا فلان القائد وفلان التاجر وأن يدفعها إلى القائد فامتنع القاضى، وقال: إنها من حق التاجر ، وكتب للمنصور بذلك . فكتب إليـه : والله الذى لا إله إلا هو لتدفعنها إلى القـائد فكتب إليه سوار يقول : والله الذى لا إله إلا هو لا أخرجها من يده إلا بحق . فلما جاءه الكتاب قال : ملأتها والله عدلا ، وصارت قضاتى تردنى إلى الحق .

لو أن أبا جعفر لم يبذل ثمين وقته فى محاربة الخارجين عليـه ، وكانت الحروب التى باشرها فتوحا فى بلاد أجنبية — لكان زمنه يعد من أكبر الأزمان فى الفتوح والأعمال الحربية ، كما عد أكبر زمن فى الفتح العلمى والتقدم فى المعارف . ولكن قدّر الله أن يكون بأسنا بيننا فى تلك المدّة كما قدمنا ، وذلك من المنازعة على الملك ، وسمو الآمال إليه ، وعدم دفع الخارجين عليه إلا بالقوة الغالبة أو ينقرضوا .

كانت خزائن أبى جعفر ملأى بأنواع الأموال ، وجيوشـه على قدم الاستعداد ، ولولا ذلك ما تمت له الخلافة. وناهيك بوصيته للمهدى وقوله فيها : إنى قد جمعت لك من الأموال ما يكفيك لأرزاق الجند، والنفقات على اختلافها عشر سنين فاحتفظ بها ؛ فإنك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا . وأوصيك بأهل بيتك خيرا ؛ فإن عزك عزهم . وانظر مواليك ؛

فإنهم مادتك لشدّتك. و إياك والتبذير فإن النوائب غير مأمونة. ولا تتجاوز ما أمر الله به ، وأعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وخذ نفسك بالتيقظ وتفقد من يبيت على بابك ، وسهل إذنك للناس ، ووكل بهم عينا غير نائمة ، ونفسا غير لاهية ، ولا تنم ؛ فإن أباك لم ينم منذ ولى الخلافة ، ولا دخل عينه الغمض إلا وقلبه مستيقظ .

المهدى أبو عبد الله محمد بن المنصور

هو المهدى أبوعبد الله محمد بن المنصور، ولد سنة ست وعشرين ومائة، و بويع له بالخلافة فى سنة ثمان وخمسين بعهد من أبيه المنصور بعد موته (ببئر ميمون) كما تقدم فى ترجمته فلما وصل الخبر إليه ببغداد خطب الناس فقال : .

إن أمير المؤمنين عبد دعى فأجاب ، وأمر فأطاع (واغرورقت عيناه !) فقال : قد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عند فراق الأحبة، ولقد فارقت عظيما! وقلدت جسيما ! فعند الله أحتسب أمير المؤمنين وأستعين على خلافة المسلمين . أيها الناس ، أسروا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية ، واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم ، وطوى الإصر عنكم ، وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدما ذلك . والله لأفنين عمرى بين عقوبتكم والإحسان عليكم .

يرى المعن فى معانى هذه الخطبة شيئا كثيرا من المنافع والمقاصد الخيرية : أظهرت تأثره بالفجيعة ، وأبانت أن خلاله خلال حنو وانعطاف ، وأن ملكوت الخلافة لم ينسه حق الأبوة، ورأينا غير ذلك فى غيره ممن لا تذكر نعمتهم فى جانبه، وما أسوأ العقوق والعياذ بالله !

نقب عن أحسن ما توصف به الرعية، وطلب تحقيقه من الأمة والملة، فقال : أسروا كما تعلنون ؛ لأن الأمة أقبح ما تكون وفى صدرها دخل سواء أكانت تسره للأفراد أم لأولياء أمورها .

طلب منهم خفض الجناح ، وقرنه إلى نشر المعدلة فيهم وطى الإصر عنهم . وما أجل ذلك فى معانى الحكم بالعدل والملك بالحق !

حكم على نفسه بأن يفنى عمره بين الإحسان والعقوبة . وكذلك النفوس الكاملة ، تتقلب رعاياها بين رحموتها وجبروتها ؛ لكيلا تكون سكرا فتؤكل ، أو حنظلا فترمى :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا

مضر كوضع السيف فى موضع الندى

كأنما المنصور كان ينعى نفسه ؛ فقد وصاه عند وداعه وصية من لا يؤمل اللقاء . فلم يدع فيها شيئا من الخير يمكن الإحاطة به إلا تقدم إليه فيه ، وأوصاه بخصال جمله بها ، واستخلف الله عليه .

تولى الخلافة مستأنسا بوصية والده هذه ، متدربا خليقا بالإمارة ؛ لأن الخليفة المنصور روضه بما ولاه قبلها من الأعمال ، مذ شب وتأدب وجالس العلماء ، وبلغ مبلغ الكمال .

أمّره على طبرستان وما والاها ، فباشر أعمالها حتى برهن على أهليته . ثم عهد إليه بالخلافة بعد ذلك ، فكان العهد إليه عن خبرة ، وحقيقة نظر فى مصالح الأمة . وكأن المنصور بترويضه ولده ، وولى عهده على أمورها وأعمالها — نظر لمصالح هذه الأمة فى مماته نظره لها فى حياته . وحبذا الخلفاء .

روى المهدى الحديث عن أبيه ، وعن مبارك بن فضالة ، وحدث عنه يحيى بن حمزة ، وجعفر بن سليمان الضبعى وغيرهما . قال الذهبى : وما علمت فيه جرحا ولا تعديلا .

كان المهدى جوادا ممدوحا ، محببا إلى الرعية حسن الاعتقاد . قال له يوما (يعقوب) وزيره فى أمر أراده : هذا والله السرف . فقال المهدى : ويحك ! يايعقوب ، إنما يحسن السرف بأهل الشرف ؛ ليعلم المكثر من المقل .

كان من أوائل فعله فى خلافته تتبع الزنادقة ، والقائلين بالتناسخ من أهل خراسان الملتفين حول راية المقنع ولوائه ، فحاربهم ثم أراد أن يكون دليله فى إذلالهم دليل بحث وتنقيب ، وحجته فى إلخامهم حجة برهان واستنباط لا حجة غلبة وصولة ، فأمر بتصنيف كتب الجدل فى الرد على مسائلهم فى الزندقة والإلحاد ، وما زال بهم حتى أفناهم وطهر الأرض منهم .

وفى سنة تسع وخمسين ومائة بايع المهدى بولاية العهد لموسى الهادى ، ثم من بعده لهرون الرشيد ولديه .

وفى سنة ستين حج بالناس ، وقسم مالا عظيما فى مصارف الخير ، ونقل خمسمائة من سلالة الأنصار إلى العراق جعلهم فى حرسه ، وأقطع لهم الأرزاق .

حمل إليه الثلج وهو فى مكة . وهذا مما لم يتهيأ لخليفة قبله قط . وما ذلك إلا من انتظام البريد ، وأمان الطريق ، وسلامة الوارد والمتردد .

عمر الطريق إلى مكة ، وبنى به قصورا أوسع من قصور المنصور وجدد الأميال ، وحفر الآبار ، وأصبحت الطريق آمنة صالحة إلى بيت الله الحرام ومقام نبيه عليه السلام ، وأمر باتخاذ المصانع فى كل منها

منهل ، وسير البريد من العراق إلى الحجاز ، ومن اليمن إلى مكة وغيرها وخص له إبلا و بغالا لا تحصى ، وهو مما لم يتفق لغيره أيضا .

أمر بترك المقاصير التى فى جوامع الإسلام ، وقصر المنابر ، وصيرها على مقدار منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووسع المسجد الحرام وأمر بالزيادة الكبرى فيه ، وأدخل فى ذلك دورا كثيرة ، ولم يزل البناء فيه إلى وفاته .

ثم بدأ فى الفتوح ببلاد الروم فكثرت الفتوحات على يديه ، ونصره الله وزاد فى غنيمته : فمنها أنه فى سنة ثلاث وستين ومائة تجهز لغزو الروم و جمع الأجناد من خراسان وما يليها من الآفاق وسار مستصحبا ولده هارون ، و بعد أن عبر الفرات بعثه للغزو ، فحاصر البلاد ، وافتتحها ، وأثخن فى الزنادقة .

ثم سير ابنه هارون فى سنة خمس وستين ومائة لغزو الروم ، فأوغل فى بلادهم ، وهزمهم ، و جمع إليه أموالا كثيرة ، وسار حتى بلغ القُسْطَنْطِينِيَّة ، وكان على الروم يومئذ غسطة (زوجة أليوك) كافلة لابنها منه صغيرا ، فجرى الصلح على الفدية ، وأن تقام له الأدلاء ، والأسواق فى الطريق ، ونال قصده من ذلك .

كان عادلا محبا للعدل ، فإذا جلس للظالم قال : أدخلوا علىّ القضاة فلو لم يكن ردى للظالم إلا لحياء منهم لكفى .

بلغ من تقواه ما حدث به (الحسن الوصيف) قال : أصابتنا ريح شديدة فى أيام المهدى ، حتى ظننا أنها تسوقنا إلى المحشر ، فخرجت أطلب

المهدى فوجدته واضعا خده على الأرض وهو يقول : اللهم احفظ عهدا فى أمته ! اللهم لا تشمت بنا أعداءنا من الأمم ! اللهم إن كنت آخذت هذا العالم بذنبى فهذه ناصيتى بين يديك ! قال : فما لبثنا إلا يسيرا ، حتى انكشفت الريح ، وزال عنا ما كنا فيه .

كان سمحا جميلا . قال الربيع : رأيته يصلى فى بهو له فى ليلة مقمرة فما أدرى أهو أحسن ، أم البهو ، أم القمر ، أم ثيابه ؟ فقرأ : " فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض ، وتقطعوا أرحامكم " قال : فأتم صلاته ثم التفت إلىّ وقال : (يا ربيع) قلت : (لبيك) ، قال : (موسى) فقلت فى نفسى : من هو موسى؟ أموسى ابنه ، أم موسى بن جعفر؟ وكان محبوسا عندى . فجعلت أفكر ثم غلب علىّ أنه موسى بن جعفر ، فأحضرته ثم قال له : ياموسى ، إنى قرأت هذه الآية (وقرأها) فخفت أن أكون قد قطعت رحمك فوثق لى أنك لا تخرج علىّ وتؤذى بخروجك جماعة المسلمين ، حتى أخليك ، فوثق له فخلاه .

و يحق للقارئ لهذا الخبر أن يحاكى الربيع فى مقاله و يجاريه ، فيقول لا أدرى : قراءته كلام الله بهذا الإمعان والتدبر أحسن ، أم العلم به فى صلة الرحم ، أم العفو عن المسىء ، أم مخافة الله !

كان عصره عصر خير و بركة : جمع من الزهاد إبرهيم بن أدهم ، وداود الطائى ، ومن الأعلام : الخليل بن أحمد الفراهيدى صاحب العروض ، وسفيان الثورى ، و بشار بن برد أول شعراء المحدثين .

كان مثالا للسماحة ، وقدوة فى مكارم الأخلاق . قالوا كان يصلى بالناس الصلوات الخمس بالمسجد الجامع بالبصرة لما قدمها ، فأقيمت الصلاة

يوما فقال أعرابى : لست على طهر وقد رغبت فى الصلاة خلفك ، فأمر الناس بانتظاره ، ودخل المحراب ووقف إلى أن قيل جاء الرجل فكبر وصلى .

ومن الخبر المأثور عنه فى حب النبى صلى الله عليه وسلم أنه أول من قرأ فى الخطبة : " إن الله وملائكته يصلون على النبى " الآية . قال الأصمعى سمعت المهدى على منبر البصرة يقول : إن الله أمركم بأمر بدأ فيه بنفسه وثنى بملائكته ، وقرأ الآية .

كان يعس بنفسه حال الأمة والملة . فاتفق له ليلة أنه سمع أعرابية تقول : قومى مقترون ، نبت عنهم العيون ، فدحتهم الديون ، غصتهم السنون ، بادت رجالهم ، وذهبت أموالهم ، وكثرت عيالهم ، أبناء سبيل وأنضاء طريق . وصية الله ووصية الرسول فهل من آمر لى بخير كلأه الله فى سفره ، وخلفه فى أهله فوصلها وأمر من يوصلها لحيها .

وأسند إليه عن مهدى بن سابق قال : صاح رجل بالمهدى وهو فى موكبه وقال :

قل للخليفة حاتم لك خائن ... نخف الإله وأعفنا من حاتم

إن العفيف إذا استعان بخائن ... كان العفيف شريكه فى المأثم

فاستوقف كل عامل يدعى حاتما حتى عرف له صاحب الخيانة وتقاضاه.

واعترضته امرأة فقالت : ياعصبة رسول الله، انظروا فى حاجتى فقال : اقضوا حاجتها وصلوها بعشرة آلاف درهم فإنى ما سمعت أحدا خاطبنى بهذا .

ومن غرر أقواله قوله : ما توسل إلىّ أحد بوسيلة هى أقرب من تذكيرى يدا سلفت منى إليه أتبعها أختها ، وأحسن ربها ؛ فإن منع الأواخر يقطع شكر الأوائل .

هذه الترجمة مثال تقاس عليه نتيجة حسن تربية أولياء العهد ، وترويضهم على العمل فى أيام أسلافهم ؛ ليتحقق منهم النظر فى مصالح الأمة لدينهم ودنياهم ، متى أصبحوا أئمة عليها ، ووجب على جميع الرعية طاعتهم .

إن ولى العهد إذا أصبح ليس بينه و بين تحقيق أمنيته إلا موت العاهد له كان ذلك شؤما عليه وعلى الأمة وأى شؤم ؛ فإنه يبطئ بنفسه عن كثير من خصال الخير ، ولا يوجد له إحساس يدفعه لحب التعلم ، ولا يكلفه الوصول لما فيه مرضاة الأمة ، بخلاف ما إذا سلم له النظر فى أمر نفسه ، وأمور المسلمين على نظر من الخليفة والناس ، ودفع على الأمور ورأى المنشط منها والمكره ، وسلك فيها بالاستيعاب حتى يفهم المعنى الذى سيصبح من أجله أمير المؤمنين ، كان ذلك من أجل دواعى ترقى نفسه فى مراقى الكمال ، ووقعت المصلحة فى اجتماع الناس عليه واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد الذى شأنه أهم عند الشارع من كل شأن ؛ لما فيه من انتفاء الريب .

اللهم وفقنا لما تحبه وترضاه . ويسر لنا ارتباط القلوب واتفاق الأهواء واتحاد النفوس ، واجعل أشد ما نجتمع عليه إيثار مصلحة المسلمين على كل شىء فى كل شىء من أمر دنياهم وآخرتهم .

هرون الرشـــيد

هو هرون الرشيد، وكنيته أبو جعفر (وكان يكنى أباموسى) ابن المهدى محمد بن المنصور عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس .

تولى الخلافة بعهد من أبيه المهدى عند موت أخيه الهادى ليلة السبت لأربع عشرة بقيت من ربيع الأول سـنة سبعين ومائة . هذه الليلة من أعجب الليالى : تولى فيها الرشيد الخلافة ، وولد فيها له عبد الله المأمون ، ومات فيها أخوه الهـادى . وليس فى ليالى الزمن المعروفة ليلة تمخضت عن موت خليفة ، وقيام خليفة ، وولادة خليفة غيرها . فإن كان ثم تفسير طابق معنى قول القائل :

الليالى من الزمان حبالى مثقلات يلدن كل عجيبة

— فهذه الليلة من تلك الليالى .

أسند الصولى عن يعقوب بن جعفر . قال: رأى الرشيد فى نومه النبى صلى الله عليه وسلم فى سنة تسع وستين ومائة فقال له : إن هذا الأمر صائر إليك فاغز ، وحج ، ووسع على أهل الحرمين . فقام غازيا أطراف الروم وغنم ، وانصرف فى شـعبان فحج بالناس فى الموسم ، وفرق على أهـل الحرمين مالا كثيرا ، وصدق الله الرؤيا ، وتولى الخلافة فى السنة التى بعدها .

كانت ولادة الرشـيد بالرى فى أواخر ذى الحجة سـنة خمس وأربعين ومائة ، وكان مولد الفضل بن يحيى البرمكى قبله بسبعة أيام ، فأرضعت

أم الفضل الرشيد ، وأرضعت الخيزران الفضل بلبان الرشيد . وكان أبوه المهدى فى تلك الأيام وما بعدها أميرا على الرى وخراسان من قبل المنصور كما قدمنا فى ترجمتيهما .

هـذا هو الخليفة الذى مثل معنى الخلافة ومقامها : فى عدلها وحلمها وإنصافها وإقامة عماد دولتها ، وإظهار شأنها ، وحماية ناموسها . وحاطها بأنواع الأسباب التى تدفع عنها المكاره . هو الذى مثل البذخ والترف والمجد والشرف ، والأبهة والعز والعظمة والسودد ، والنعيم المقيم الذى جمع دواعى المتع الدنيوية والفوائد الأخروية . وهو الذى اجتمع له فى خلافتـه ما لم يجتمع لغيره : وزراؤه البرامكة ، وقاضيه أبو يوسف ، وشاعره مروان بن أبى حفصة ، ونديمه العباس بن محمد عم أبيه ، وحاجبه الفضل بن الربيع أنبه الناس وأفطنهم وأعظمهم فهو كما قيل :

إن المكارم والمعروف أودية أحله الله منها حيث تجتمع

كان أمير الخلفاء ، وأجل ملوك الدنيـا ، وكان كثير الغزو والحج يغزو سنة ويحج سنة إلا سنين قليلة ، فإذا حج حج معه مائة من الفقهاء وأبنائهم ، وإذا لم يحج أحج ثلثمائة رجل بالنفقة السابغة ، والكسوة الباهرة . قال الشاعر :

فمن يطلب لقـاءك أو يرده ففى الحرمين أو أقصى الثغور

ففى أرض العـدو على طمتر وفى البـلد المحـرم فوق كور

كان مفردا فى تعظيم حرمات الإسـلام ، والمبالغة فى احترام العلماء والوعاظ ، محبا للعلم وأهله ، مبغضا الرياء فى الدين ، والمعـارضة فى النص .

كان الرشيد أبيض طويلا جميلا مليحا فصيحا ، له النظر النافذ فى العلم والأدب ، كثير الصلاة يصلى كل يوم مائة ركعة لا يتركها إلا لعلة . وله صدقات من صلب ماله تزيد على ألف درهم فى كل يوم . وكان له تواضع فى شرفه أشرف من الشرف : فمن أحسنه وما (أحسن شىء كله حسن !) — ماحدث به أبو معاوية الضرير ، قال : أكلت مع الرشيد ، ثم صب على يدى الماء رجل لا أعرفه . فقال الرشيد : يا أبا معاوية ، أتدرى من صب الماء على يدك؟ فقلت : لا . ياأمير المؤمنين . قال : أنا . فقلت : ياأمير المؤمنين ، أنت تفعل هذا إجلالا للعلم ؟ قال : نعم . وقال القاضى الفاضل فى بعض رسائله عند الكلام على رحلة السلطان صلاح الدين لطلب العلم : ما أعلم أن لملك رحلة قط فى طلب العلم إلا الرشيد ؛ فإنه رحل بولديه : الأمين والمأمون لسماع الموطأ على سيدنا مالك رحمه الله ، ثم رحل لسماعه أيضا مقتديا به هذا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الإسكندرية ، فسمعه على ابن طاهر بن عوف ولا يعلم غيرهما أحد . وكان أصل الموطأ بسماع الرشيد فى (خزانة المصريين) .

كان مولعا باحترام العلماء : فمن فضائله فيه أنه لما بلغه موت ابن المبارك جلس للعزاء فيه عن أهله ، وأمر الأعيان والأمراء أن يعزوه .

كان بكّاء على نفسه يشفق من إسرافه وذنوبه ولا سيما إذا وعظ ، ولم يرأغزر دمعا منه عند الذكر ، ولم يذكر له النبى إلا قال : صلى الله على سيدى .

دخل عليه ابن السماك يوما — وكان يعظه — فاستسقى الرشيد ، فأتى له بماء فقال له ابن السماك : على رسلك يا أمير المؤمنين ؛ لو منعت هذه الشربة بكم

تشتريها ؟ قال : بنصف ملكى ، قال : اشرب هنأك الله بها . فلما شربها قال : أسألك : لو منعت خروجها بماذا تشترى خروجها ؟ قال : بملكى . قال : إن ملكا قيمته شربة ماء لجدير ألا ينافس فيه . فبكى الرشيد . وقال يوما لشيبان : عظنى . قال : لئن تصحب من يخوفك حتى يدركك الأمن خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى يدركك الخوف . فقال الرشيد : فسر لى هذا . قال : من يقول لك : إنك مسئول عن الرعية فاتق الله — أنصح لك ممن يقول : أنتم أهل بيت مغفور لكم ، وأنتم قرابة نبيكم صلى الله عليه وسلم .

كان كأنه جده المنصور هيبة وصلابة فى الملك ، وجبروتا وشدة مع الحق ، كثير الكراهة للباطل ، متتبعا للزنادقة طالبا لهم ، وكان القول بخلق القرآن شائعا فى عهده ، فما يظفر بأحد من أهل هذه الآراء ، حتى يقتص منه أشد القصاص .

كان شديد الاقتفاء لأعمال جده ، متطلبا للعمل بآثاره ومحاكاته فى أعماله ، وصيانة سرير ملكه ، وحفظ أبهته وزيه . فلم يختلف عنه فى شىء إلا فى البذل والنوال ؛ لأنه لم ير خليفة بذل ما بذله الرشيد فى العطايا من مال وخلع ؛ فكانت صلته تصل ما بين الإنسان وبين الغِنَى ، وتقطع ما بينه وبين الفقر والاحتياج .

ولى الخلافة بعد ما تنقل فى مهام أمورها ؛ فقد استعمله أبوه المهدى فى الأعمال وروّضه عليها ، فجهزه مرارا للغزو بالصائفة ، والإيغال فى بلاد الروم . وفى سنة ثلاث وستين ومائة ولاه المغرب كله ، وأذربيجان وإرمينية ، وجعل كاتبه ثابت بن موسى ، وعلى رسائله يحيى بن خالد ، فنشأ خير نشء وظهر بخير مظهر .

كان فى غرضه أن يوصل ما بين بحر الروم و بحر القُلْزُم ، مما يلى الفَرَمَا (أى أن يفتح قناة السويس) فشاور وزيره يحيى ، وفكرا طويلا فانكشف لهما توغل الروم ، فخافا من دخولهم بمراكبهم فى القلزم ، وقربهم من الأراضى المقدسة فنزعا عن هذا الفكر .

هـذه نتائج خواطر وزراء الخير الذين يدركون قوة حكومتهم فلا يتورطون فى أمور لا قبل لهم بها ، ولا يغررون بأنفسهم ؛ لأنهم يعلمون معنى المسئولية التى تحيط بمركزهم ، فلا يقدمون على شىء إلا ولهم منه مخرج . ولو كان للناس وزير كيحيى لخفف من هـذا البلاء النازل ، أو حدّه ، أو تلطف فلطف من قضائه المبرم ، وعاق امتـداد الأيدى الأجنبية عن العبث فى هذه النواحى بدعوى الاستعمار الذى جاز حده فى البحار والقفار .

ازدهى عصره بين الأعصار بوجود كثير من العلمـاء الأعلام فيـه : كالإمام مالك بن أنس ، والليث بن سعد ، والنسائى ، ومحمد بن الحسن من كبار أصحـاب أبى حنيفة ، وصعصعة بن سلام عالم الأندلس وغيرهم . وهـذا أيضا من سعة رزق خلافته ، و إرادة الله سبحانه وتعـالى له الخير ببطانة الخير ، والفلاح والنجاح الذين يتأسى بهم فى كل صلاح .

نقل شيئا كثيرا من عادات الفرس : منهـا الكرة والصولجان ، ورمى النشاب فى البرجاس ، والشطرنج ، وجعل لكل شىء قاعدة ومرتبـة ، حتى المغنين فإنه أول من جعل لهم مراتب وطبقات يعرفون بها .

كانت بغداد فى عصره نادرة الدنيـا ، وعروس المدائن ، فريدة فى حضارتها وعمارتها ، ترقت فيها أسباب المدنية لدرجة لم ير مثلها كما قدمنا

ذلك (فى النبذة التاريخية) : فأيامها أعياد ، ولياليها أعراس ، وسلطانه الممتد سياجه عليها قد عظم من قدرها ، ونبه من ذكرها ، وهو بمـا أسبغه عليها من ظله الظليل وما منحها من العدل والمساواة — دعا الناس بلسان الأمن والأمان إلى المبادرة إليها بالمتـاجر والعروض ، فتناهوا فى الطلب والإقدام على العمل بعلو الهمة ، وجلس للنـاس فى منصة عدله ، وعمهم برحمتـه ، فشمل القوى والضعيف ، والعاجز والعليل ، وذوى الحاجات ومن لاوسيلة لهم ، فأزاح عن جميعهم العلل وأبطل الأهواء ، وحجز بتدبيره عنهم كل آفة تؤدى للتقاعس والتقاعد والدمار والخراب .

أما غزوه وفتحه وحجه وفديته — فكثير : منه أنه فى سنة إحدى وسبعين ومائة حارب (الصحصح) الخارجى بالجزيرة وقتله . وفى سنة ثلاث وسبعين ومائة غزا الصائفة ، وحج بالناس ، وأحرم من بغداد . وفى سنة أربع وسبعين حج بالناس وقسم مالا كثيرا ، وفى سنة ست وسبعين ومائة عقـد لابنه محمد ولاية العهد ولقبه (الأمين) وأخذ له البيعة وعمره خمس سنين ، ثم فتح فى سنة ست وسبعين ومائة مدينة (دَلَايَة) على يد الأمير عبد الرحمن ابن عبد الملك بن صالح العباسى ، وفى سنة إحدى وثمانين ومائة غزا الرشيد أرض الروم فافتتح حِصْنَ الصَّفْصَاف ، وغزا عبد الملك بن صالح أرض الروم و بلغ أَنْقِرَة .

ثم دخلت سنة اثنتين وثمانين ومائة وفيها زلقت قدم الرشيد بيد القضاء والقدر ، و بايع لولده عبد الله بولاية العهد بعد الأمين ، وولاه خراسان وما يتصل بها ، ولقبه (المأمون) وسلمه إلى جعفر بن يحيى . وهذا العمل منه يعد من أعجب العجب بعد ما جرب عواقبه فى نفسه ، ورأى ما صنعه أبوه وجده بعيسى بن موسى ، حتى خلع نفسه من ولاية العهـد ، و بعد

ما صنعه أخوه الهادى معه لخلعه من العهد، وتولية ابنه جعفر ولو لم يعاجله الموت لفعل . ولكن نفذ قدر ، وضاع حذر .

ثم حج الرشيد بالناس بعدها فى سنة خمس وثمانين ومائة ، وسار إلى مكة من الأنبار ، وبدأ بالمدينة فأعطى فيها ثلاثة أعطية : عطاؤه ، وعطاء الأمين ، وعطاء المأمون . ثم سار إلى مكة فأعطى أهلها أيضا ، وولى الأمين العراق والشام إلى آخر المغرب ، والمأمون همذان إلى آخر المشرق ، وبايع ابنه (القاسم) بولاية العهد بعد المأمون ولقبه (المؤتمن) ، وضم إليه الجزيرة والثغور والعواصم وكتب كتابين بالإشهاد ، وعلقهما فى الكعبة فقال الناس : قد ألقى بينهم شرا وحربا . وخافوا العاقبة ، وكان ما خافوه .

وفى سنة سبع وثمانين ومائة نقض ملك الروم الهدنة التى كانت بين المسلمين وبين الملكة (رينى) ملكة الروم ، فكتب للرشيد كتابا يقول فيه : أما بعد فإن الملكة التى كانت قبلى أقامتك مقام الرخ ، وأقامت نفسها مقام البيدق ، فحملت إليك من أموالها أحمالا لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابى فاردد ما حصل قبلك من أموالها ، وإلا فالسيف بينى وبينك . فلما قرأ الرشيد كتابه كتب إليه : قد قرأت كتابك والجواب ما ترى لا ما تسمع وسار ليومه ولم يزل حتى نازله ، ووصل إلى مدينة هرقلة بالغزوة المشهورة ، ولم يتزحزح حتى بلغ مراده منه .

وفى هذه السنة كانت تمت للبرامكة مشاركتهم للرشيد فى سلطانه ، وعظم فى نظر الناس ما لهم من الآثار وبعد الصيت ، وكثر ما اختصوا به وعمروه من مراتب الدولة وخططها ، وما احتازوه عمن سواهم من وزارة وكتابة ، وقيادة وحجابة ، وسيف وقلم ، واقتصرت عليهم الآمال ، وتخطت

إليهم من أقصى التخوم والممالك هدايا الملوك وتحف الأمراء ، واستجار بهم العانى والمعدم والمذنب فأجاروه ، فأهاجوا بذلك كامن الغيرة ، وسلطوا عليهم بأس الانتقام ، ومكنوا منهم جماعة الحساد والدهر حرب للقام العالى ونعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال .

وقعت لهم النكبة المشهورة التى لهم فيها بمن قبلهم أسوة ، ولمن بعدهم عبرة كانت دليلا جديدا على أن الدنيا دول ، والمال عارية . نكبة أمسكت لسان المادح ، وقطعت لسان الحاسد ، وبكاها الولى والمولى ، والعدو والجاحد . نكبة استراحت بعدها الوراد من قطع الفدافد سعيا ، وأقسم الجود ألا يحيا بعد يحيى : " إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد " .

ثم فادى الرشيد فى سنة تسع وثمانين ومائة ملك الروم ، حتى لم يبق فى الأسر مسلم ، وهو أول فداء كان لبنى العباس . وفى سنة تسعين ومائة فتح (هرقلة) وبث جيوشه بأرض الروم ، وافتتح شراحيل بن معن بن زائدة حصن الصقالبة ، وفى سنة ثلاث وتسعين ومائة سار الرشيد نحو خراسان للغزو ، فوصل (طوس) فمرض بها ، ومات فى ثالث جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة رحمه الله ! وصلى عليه ابن صالح . مات على أشرف حال يرتجيه القائم على أمة ، شهيد الغربة ، شهيد الجهاد ، فارتفعت روحه الشريفة فى مراتب الشهداء ، تسبح فى ملكوت الله فى أعلى عليين . ثم أخذ رجاء الخادم البرد والقضيب والخاتم ، وسار على البريد فى اثنى عشر يوما من (مرو) حتى قدم بغداد فى نصف جمادى الآخرة ، ودفع ذلك للأمين :

وقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

هذه سيرة هذا الخليفة الخامس من بنى العباس، طالت ولم نستوف شطرا من فضائله . والقصاص ومن لا بصيرة لهم من الكتاب ينسبون إليه أشياء فى اللهو واللذات المحظورة ، الله يعلم أنه برىء منها . وأنى ذلك وهو من العلم والفطرة السليمة واجتناب المذمومات فى دينه ودنياه ، والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ، ونزعات العرب بمرتبه تشبه مراتب السلف ، وحاله فى اجتناب الخمر معلومة لجميع بطانته ، وأهل مائدته ! ! وكفى بتغيره على طبيبه بختيشوع دليلا على ذلك .

وكيف يعقل أن الرشيد يقترف محرما ، وقرناؤه وجلساؤه مثل الفضيل ابن عياض ، وابن السماك والعمرى ، ومكاتبته سفيان الثورى ، و بكاؤه من مواعظهم ودعاؤه بمكة فى طوافه ، وما كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات ، وشهود صلاة الصبح لأول وقتها .

إن الرشيد — رحمه الله — أجل من أن يرتكب السرف والترف فى ملبسه وزينته وسائر متناولاته ؛ لقربه من خشونة البداوة وسماحة الدين — فالله يقتص له وللمكذوب عليهم من أمثاله من القصاص الذين دونوا ما دونوا عنهم فرية وكذبا وزورا و بهتانا ؛ إرضاء لجماعة العجزة الذين لا شغل لهم إلا أحاديث النميمة والغيبة وأكل لحم إخوانهم ، كأنما هم أعداء للعلم والدين والسلطان .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

المأمون

هو أبو العباس عبد الله بن الرشيد بويع له وهو ابن ثمان وعشرين سنة. ومات سنة ثمانى عشرة ومائتين وعمره ٤٩ سنة واستقل بالأمر بعد قتل أخيه الأمين سنة ١٩٨هـ وهو بخراسان واكتنى بأبى جعفر. قال الصولى: وكانوا يحبون هذه الكنية ؛ لأنها كنية المنصور ، وكان لها فى نفوسهم جلالة وتفاؤل بطول عمر من كنى بها كالمنصور والرشيد .

ولما تأتى الملك للمأمون قال : هذا جسيم لولا أنه عديم ، وملك لولا أنه هلك ، وسرور لولا أنه غرور ، ويوم لو كان يوثق بما بعده. سمع الحديث من أبيه ، وعباد بن العوام ، وأبى معاوية الضرير وغيرهم ، وأدّبه اليزيد وجمع من الفقهاء والأدباء ، حتى برع فى الفقه والعربية وأيام الناس ، وعنى بالفلسفة وعلوم الأوائل . وهو الذى استخرج كتاب أقليدس ، وأمر بترجمته وتفصيله ، وهو الذى عقدت فى زمانه مجالس المناظرة التى خصص لها يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، وترقت العلوم فى عهده وفشت بين العرب . وهو أول من قاس الدرجة الأرضية ، وعرف مقدارها ، وأخذ من كل العلوم بقسط ، وضرب فيها بسهم .

وأخرج محمد بن عباد أنه لم يحفظ القرآن أحد من الخلفاء إلا عثمان بن عفان والمأمون . (ولكن فى هذا نظر) .

اشتغل بالحديث ، حتى قالوا : إن الرشيد لما حج معه طلب المحدثين ، فبعث إليهم بالأمين والمأمون، فحدثوهما مائة حديث، ثم قال المأمون:

أيؤذن لى أن أعيدها من حفظى ؟ قيل : نعم . فأعادها . وهو أول من استخرج كتب الفلاسفة واليونان من جزيرة قبرص وهو الذى قال : (لا نزهة فى الدنيا ألذ من النظر فى عقول الرجال) .

كان المـأمون أفضل رجال بنى العباس ، عزما ، وحلما ، وعلما ، ورأيا ، ودهاء، وهيبة ، وشجاعة ، وسؤددا ، وسماحة ، وله فضائل وسيرة طويلة كلها محامن .

كان أمارا بالعدل ، فقيه النفس ، معدودا من كبار العلماء ، اجتهد فى رأب الصدوع ، وسد الفتوق ، و إصلاح ما تشعث من بنيان الدولة، ولكن الخلاف بينـه و بين أخيه الأمين اشتعلت نيرانه ، والتهب تنوره بأيدى بطانة السوء بالسعى والإغراء ، وزيادة الوحشة إبقاء على أنفسهم وحياتهم الشخصية : كالفضل بن الربيع ، وعيسى بن ماهان ، والسندى وغيرهم . أفسدوا بين الإخوة حتى رضى الأمين بخلع أخيـه المـأمون ، وتغيظ المـأمون حتى استحل قتل أخيه الأمين ، وكل هذا سببه هـذه البطانة التى ما زالت تصـغر للأمين من أمر أخيه ، وتزين له خلعه حتى رجع إلى رأيهم ، وهم يكذبونه ، و يغشونه ولا يصدقونه . وهكذا بطانة السوء فى كل وقت وزمان ، ليس لها شغل إلا فساد ذات البين ، وتغيير قلب التابع والمتبوع خدمة لمصالحهم الشخصية .

استدعت هذه الدسائس التى زرعت بذورها بيد الأعداء ، ألا تصفو الأيام للمـأمون كما يحب و يختار ، لكثرة الخارجين عليه كابن طباطبا العلوى بالكوفة الذى سالت الدماء فى فتنته أنهارا ، و إبراهيم بن موسى باليمن ، وثوار بغداد الذين اشـتد أذى فساقهم على الناس حتى قطعوا الطريق

وأخذوا النساء والصبيان علانية . كأن الأمين فتح للناس باب الخلاف ، ونقض العهـد . وكأن المـأمون جرأ النـاس على خلعه بخلع أخيه وقتله ، وعلمهم نكث العهد والبيعة ، فكان ذلك سببا لكثرة خروج الثوار عليه . كأن لله فى ذلك حكمة عجيبة وسرا فى خليقته . من يظلم يظلم ، حتى لا ينتقض متبوع على تابع ، ولا تابع على متبوع ؛ حفظا للعهد ورعاية للبيعة ، واستكمالا لأسلوب نظام الحكومة التى يعتبر رئيسها بحق خليفة الله فى أرضه .

رأى المـأمون كثرة الثوار عليه ، وخروج الكثير بدعوى الخلافة ، وهم من آل البيت فعمد إلى على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر وجعل فيه ولاية على المسلمين فكان كما قال الشاعر (كلما داويت جرحا سال جرح) . نبض فى بنى العباس عرق الخلاف، وصعب عليهم الأمر وخلعوا المـأمون ولولا اتفاق موت على بن موسى الرضا لازدادت هـذه الفتن ، واشتد أمرها ، وكل هذا نتيجة وجود الدخلاء من غير الملة والأمة الذين لا يعنيهم إلا شئونهم الشخصية فى كل وقت .

يعجب الإنسان من شأن الخلافة العباسية و بدء انحطاطها فى عهد أعظم خلفائها (المـأمون) الذى كان فى طاقته وقدرته لعلمه وسعة اطلاعه ، أن يجمع كلمة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربهـا ، ويمنع حبلهم من الاضطراب وأطرافهم من الانتقاض وأن يتغلب بحزمه وعزمه على كل هرج وفتنة وتنازع ، ولكنها آية من آيات الله سبحانه وتعالى ينذر الناس بها ؛ ليعلموا قوة الدخلاء فى الفساد وفى تقويض أمر المسلمين ومنع الساسة من تأييد سلطانهم من شدة الفتنة التى يدخلونها عليهم .

كان المأمون لعلو همته ، يحب الوقوف على أحوال رعاياه بنفسه فكان كثير التنقل من إقليم إلى آخر ، فجال فى بلاد الشام وشاهد آثارها ، ودخل مصر ورأى عجائب مبانيها (وهو الذى فتح الفتحة التى بالهرم الأكبر الآن) .

انتقل المأمون إلى بغداد ، فانقطعت بقدومه الفتن ، وفر أصحاب الفساد ، وشرع المأمون فى فعل ما يؤثر عنه من جميل الفعال ، والعناية بالعلوم والمعارف ، ومعاشرة العلماء والأدباء ، ثم أخذ فى غزو بلاد الروم والثغور وغنم فيها وفتحها : سار سنة اثنتى عشرة ومائتين أسد بن الفرات (قاضى القَيْرَوَان) ، وهو من أصحاب مالك ، وهو مصنف (الأسدية) فى مذهبه بجيش فى البحر قاصدا جزيرة(صِقِلِّيَة) ، فلما وصلوها ملكوا كثيرا من سواحلها ، واستولوا على مدينة (سَرَقُوسَة) ، وافتتحوا عمرانا كثيرة حولها وفى هذه الحادثة ظهرت شدة المسلمين وقوتهم ؛ فإنه فى أثناء ذلك وصل أسطول من القسطنطينية فيه جمع كثير ، وقد حل بالمسلمين وباء شديد ومات أميرهم ، فرأوا أن يسيروا بمراكبهم ، فوقف لهم الروم على باب المرسى ، فلما تضايقوا جمعوا أمرهم ، وأحرقوا المراكب ، وعادوا للبلاد فحاصروها ، واستلموا حصنها ، وحصنا آخر اسمه (جرجنت) ، ومدينة (قَصْرِيَانَة) ، ثم استمرت الغزوات ، ووصلت مراكب كثيرة من إفريقية فيها المدد للمسلمين ، وساروا إلى ثغر (بَلَرْم) ، ثم ساروا إلى جبل النار والحصون التى فى تلك الناحية وهم فى كل ذلك غانمون .

وحج المأمون بالناس سنين عدة .

ثم دخلت سنة خمس عشرة ومائتين ، فسار المأمون إلى بلاد الروم من طريق أَنْطَاكِيَة ، وافتتح حصن (قره) عنوة ، ونحوا من ثلاثين حصنا أخرى .

وكان المأمون كريما ينفق إنفاق من لا يخاف الفقر ، وحسبك أنه لما بنى على (بوران) بنت الحسن بن سهل ، كانت عطياته رقاعا فيها أسماء ضياع ، فكل من سقطت فى يده ورقة أخذ الضيعة المكتوب اسمها فيها .

كان غاية فى كل علم : أخرج محمد بن أبى حفص الأنماطى قال : تغدينا مع المأمون مرة ، فوضع على المائدة أكثر من ثلثمائة لون ، وكلما وضع لون قال : هذا نافع لكذا ، ضار لكذا ، من كان منكم صاحب دم فليجتنب هذا ، ومن كان منكم صاحب صفراء فليأكل من هذا ، وهكذا حتى أتى على فوائد جميع أصناف الطعام ومضارها بالنسبة لأصحاب الأمزجة على اختلاف أنواعها .

ومن أغرب ما يؤثر عنه فى الذكاء المفرط أن امرأة شكت إليه فقالت : يا أمير المؤمنين ، مات أخى ، فخلف ستمائة دينار ، فحكم لى القاضى بدينار واحد . فقال لها المأمون : لعل الرجل خلف ابنتين ووالدة وزوجة واثنى عشر أخا . قالت : نعم . قال : هذا نصيبك . قالت : وكيف ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : للبنتين الثلثان (أربعمائة) ، وللوالدة السدس (مائة) ، وللزوجة الثمن (خمسة وسبعون) ، ولكل أخ ديناران ولك دينار .

كان مع (جالينوس) فى معرفة النجوم، ومع (هرمز) فى الحساب، ومع على بن أبى طالب فى الفقه ، فكان يفضل الناس بعقله وكماله ، ويسود عليهم بأدبه وحسن مجاملته : أخرج الخطيب عن يحيى بن أكثم ، قال : بت عند المأمون ليلة ، فأخذه سعال ، فأخذ يسد فاه بكم قميصه حتى لا أنتبه . وكان فيه رفق بخدمه وخاصته : قال عبد السلام بن صالح : بت عند المأمون ليلة ، فنام القيم الذى يصلح السراج فطفئ ، فقام المأمون وأصلحه . وقال الصولى : كنا فى السفر مع المأمون ، فكان يتفقدنا فى الليل ويغطينا .

ومن كلامه : ما أقبح اللجاجة بالسلطان ، والضجر من القضاة ، والسخافة بالفقهاء ، والبخل بالأغنياء ، والمزاح بالشيوخ ، والكسل بالشباب ، والجبن بالمقاتل .

وكان يحب لعب الشطرنج ، ويقول : إنه يشحذ الذهن .

وكان يقول : ما فتق على فى الخلافة فتق إلا وجدت سببه جور العمال ولقد صدق المأمون ؛ فإن العمال أيدى الملك وآذانه ، الذين بهم تدار الأمور فى الجهات القاصية ، وتسمع بهم الشكوى . فإن لم يكونوا متصفين بتقوى الله ، عاملين بأحسن السير ، غير غافلين عن شىء من أمر الرعية — نزلت بساحتهم المفاسد ، وتجردت لهم الأعداء ، وذهبوا ، وذهبت الجهات التى هم عاملون عليها من قبضة الحكومة ، وتولى أمرها غيرهم . وفى الاستعمار الأوربى عبرة لمعتبر ، فضلا عن الجزر والأماكن والنواحى والبلاد التى كانت للإسلام وضاعت بهذا السبب .

ومن حكمه قوله : الناس ثلاثة : غذاء لا بد منه ، ودواء يحتاج إليه فى حال المرض ، وداء مكروه على كل حال .

وله الخطب البليغة، والفقر الغريبة، ومن ذلك: أعيت الحيلة فى الأمر إذا أقبل أن يدبر ، وإذا أدبر أن يقبل . وكان يقول : معاوية بعَمْروه ، وعبد الملك بن مروان بحجّاجه ، وأنا بنفسى . وكان كما قال عنه الرشيد : فيه حزم المنصور ، ونسك المهدى ، وعزة الهادى .

ثم دخلت سنة ثمانى عشرة ومائتين ، فمرض فيها المأمون لثلاث عشرة خلت من جمادى الآخرة بعلة الحمى ، فأمر أن يكتب إلى البلاد بالوصية والبيعة لأخيه المعتصم، ثم أوصاه وصية لم يفلت منها شيئا من وجوه الخير. فمن بعض ما جاء فيها : (يا أبا إسحق (كنية المعتصم) ، ادن منى ، واتعظ بما ترى ، وخذ بسيرة أخيك ، واعمل فى الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد الخائف من عقابه وعذابه) ومنها : (خذ من أقويائهم لضعفائهم ولا تحمل عليهم فى شىء ، وأنصف بعضهم من بعض، وتأن بهم ولا تعجل) ومنها : (يا أبا إسحق ، عهد الله وميثاقه ، وذمة رسوله ، لتقومن بحق الله فى عباده ، ولتؤثرن طاعته على معصيته ، اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) وهى طويلة ، ثم مات بالبَذَنْدُون من أرض الروم ، ونقل إلى طرسوس فدفن بها .

قال الثعالبى : ولا يعرف أب وابن من الخلفاء أبعد قبرا من الرشيد والمأمون ، ذاك (بطوس)[1] ، وهذا (بطَرَسُوس)[2] .

(١) طوس بلدة بإقليم خراسان .

(٢) طرسوس بلدة فى آسيا الصغرى .

راعى المأمون مصلحة السلطان مراعاة من يريد أن يستقيم له الملك مع الاستطالة ، ونظر للصالح العامة نظر السائس الذى يريد أن يحمل كل رعيته على الاجتماع على الرضا بأحكامه من مسلم وكافر ، حسبما تقتضيه الشريعة الإسلامية . ويجعل المعاند لها مقرا ومعترفا بأن قوانينها مجتمعة من الأحكام الشرعية والآداب الخلقية والقوانين الاجتماعية الطبعية ، بمراعاة ما يلزم من أصول الشوكة والسلطان الملازمين لأحكام الشرع الشريف ، فهى أرق من حكم الحكماء ، وأدب الأدباء ، وتشريع من فاق ممن فات من أصحاب القوانين والدساتير ، ولذلك كان من أكبر همه انتقاء الرجال الذين استنابهم عنه فى أعماله كلها .

حاشا لله أن نترك خبر هذه الخصلة الشريفة يمر على الأسماع من غير حكاية مفيدة ، وشاردة مثبوتة تنبئ عن فضيلة الوالى والمولى عليه ، بعد أن يسر الله لنا الكتاب الذى كتبه طاهر بن الحسين لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر ؛ فإنه كتاب جمع الوصية بجميع ما يحتاج إليه العامل فى عمله ، بل والسلطان فى دولته وسلطانه : من الآداب الدينية والخلقية والسياسية والشرعية والملكية ، وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة ، وهذا نص الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم

(أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له ، وخشيته ، ومراقبته عز وجل ومزايلة سخطه ، واحفظ رعيتك فى الليل والنهار ، والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك ، وما أنت صائر إليه ، وموقوف

عليه ، ومسئول عنه ، والعمل فى ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل ، وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه .

إن الله سبحانه قد أحسن إليك ، وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده ، وألزمك العدل فيهم ، والقيام بحقه وحدوده عليهم ، والذب عنهم والدفع عن حريمهم وبيضتهم والحقن لدمائهم ، والأمن لسبلهم وإدخال الراحة عليهم ، ومؤاخذك بما فرض عليك ، وموقفك عليه ، وسائلك عنه ، ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ، ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ، ولا يشغلك عنه شاغل ؛ فإنه رأس أمرك وملاك شأنك .

وأول ما يوقفك الله عليه لرشدك (وليكن أول ما تلزم به نفسك ، وينسب إليه فعلك) — المواظبة على مافرض الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس ، والجماعة عليها بالناس قبلك ، وتوابعها على سننها : من إسباغ الوضوء لها ، وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها . ورتل فى قراءتك ، وتمكن فى ركوعك وسجودك وتشهدك ، ولتصرف فيه رأيك ونيتك ، واحضض عليه جماعة من معك وتحت يدك ، وادأب عليها ؛ فإنها كما قال الله عز وجل : " تنهى عن الفحشاء والمنكر " .

ثم أتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالمثابرة على خلائقه ، واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده .

وإذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه وبلزوم ما أنزل الله عز وجل فى كتابه من أمره ونهيه ، وحلاله وحرامه ، وائتمام بما جاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قم

فيه بالحق لله عز وجل، ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو لبعيد .

وآثر الفقه وأهله ، والدين وحملته ، وكتاب الله عز وجل والعاملين به ؛ فإن أفضل ما يتزين به المرء الفقه فى الدين ، والطلب له ، والحث عليه ، والمعرفة بما يتقرب به إلى الله عز وجل ؛ فإنه الدليل على الخير كله ، والقائد إليه ، والآمر به والناهى عن المعاصى والموبقات كلها . ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة وإجلالا له ، ودركا للدرجات العلا فى المعاد، مع مافى ظهوره للناس من التوقير لأمرك والهيبة لسلطانك، والأنسة بك والثقة بعدلك .

وعليك بالاقتصاد فى الأمور كلها ؛ فليس شىء أبين نفعا ولا أحضر أمنا ولا أجمع فضلا منه، والقصد داعية إلى الرشد، والرشد دليل على التوفيق، والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد ، فآثره فى دنياك كلها .

ولا تقصر فى طلب الآخرة والأجر ، والأعمال الصالحة ، والسنن المعروفة ومعالم الرشد ، ولا غاية لاستكثار البر والسعى له إذا كان يطلب به وجه الله تعالى ومرضاته ومرافقة أولياء الله فى دار كرامته . واعلم أن القصد فى شأن الدنيا يورث العز، ويحصن من الذنوب، وأنك لن تحوط نفسك ومرتبتك ، ولا تستصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك وتزد مقدرتك ، ويصلح عامتك وخاصتك ، وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعيتك ، والتمس الوسيلة إليه فى الأمور كلها تستدم به النعمة عليك .

ولا تتهمن أحدا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره ؛ فإن إيقاع التهم بالبرآء والظنون السيئة بهم آثم إثم ؛ فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم ، وارفضه فيهم يعنك ذلك على استطاعتهم وروياضتهم . ولا يجدن عدو الله الشيطان فى أمرك مغمزا ؛ فإنه إنما يكتفى بالقليل من وهنك ، ويدخل عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذاذة عيشك . واعلم أنك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفى به ما أحببت كفايته من أمورك ، وتدعو به الناس إلى محبتك، والاستقامة فى الأمور كلها . ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك ، والرأفة برعيتك — أن تستعمل المسألة ، والبحث عن أمورك ، والمباشرة لأمور الأولياء ، وحياطة الرعية ، والنظر فيما يقيمها ويصلحها ، بل لتكن المباشرة لأمور الأولياء والحياطة للرعية بالنظر فى حاجاتهم ، وحمل مئوناتهم — آثر عندك مما سوى ذلك ؛ فإنه أقوم للدين ، وأحيى للسنة .

وأخلص نيتك فى جميع هذا ، وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسئول عما صنع ، ومجزى بما أحسن ، ومؤاخذ بما أساء ؛ فإن الله عز وجل جعل الدنيا حرزا وعزا ، ورفع من اتبعه وعززه .

واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الأهدى . وأقم حدود الله تعالى فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ، ولا تتهاون به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ؛ فإن فى تفريطك فى ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك ، واعتزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة ، وجانب البدع والشبهات يسلم لك دينك ، وتتم لك مروءتك .

وإذا عاهدت عهدا فأوف به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه ، واقبل الحسنة وادفع بها ، واغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك، واشده

لسانك عن قول الكذب والزور ، وابغض أهل النميمة ؛ فإن أول فساد أمورك فى عاجلها وآجلها تقريب الكذوب ، والجرأة على الكذب ؛ لأن الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمتها ؛ لأن النميمة لا يسلم صاحبها ، وقائلها لا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم له أمر .

وأحبب أهل الصلاح والصدق ، وأعن الأشراف بالحق ، وأعن الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالى وإعزاز أمره ، والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة .

واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنهما رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل فى سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى .

واملك نفسك عند الغضب ، وآثر الحلم والوقار ، وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله .

وإياك أن تقول : أنا مسلط أفعل ما أشاء ، فإن ذلك سريع إلى نقص الرأى فيك وقلة اليقين بالله عز وجل ، وأخلص لله وحده النية فيه واليقين به .

واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى ، يؤتيه من يشاء ، وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغير النعمة وحلول النقمة إلى أحد أسرع منه إلى جهلة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم فى الدولة ، إذا كفروا نعم الله وإحسانه ، واستطالوا بما آتاهم الله عز وجل من فضله .

ودع عنك شره نفسك ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تدخر وتكثر — البر والتقوى والعدل واستصلاح الرعية ، وعمارة بلادهم ، والتفقد لأمورهم ، والحفظ لدمائهم ، والإغاثة للهوفهم .

واعلم أن الأموال إذا كثرت وذخرت فى الخزائن لاتنمو ، وإذا كانت فى صلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم ، وكف الأذية عنهم — نمت ، وزكت ، وصلحت بها العامة ، وتزينت به الولاة ، وطاب بها الزمان . واعتقد فيك العز والمنفعة ؛ فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله ، ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم ، وأوف رعيتك من ذلك حصصهم ، وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم ؛ فإنك إذا فعلت قرت النعمة لك ، واستوجبت المزيد من الله تعالى ، وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك ، وأطيب نفسا بكل ما أردت . فأجهد نفسك فيما حددت لك فى هذا الباب ، ولتعظم خشيتك فيه ؛ فإنما يبقى من المال ما أنفق فى سبيل الله ، وفى سبيل حقه ، واعرف للشاكرين شكرهم ، وأثبهم عليه . وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون فيما يحق عليك ؛ فإن التهاون يورث التفريط ، والتفريط يورث البوار .

وليكن عملك لله عز وجل وفيه ، وارج الثواب ؛ فإن الله سبحانه قد أسبغ نعمته عليك فى الدنيا وأظهر لديك فضله .

واعتصم بالشكر ، وعليه فاعتمد يزدك الله خيرا وإحسانا ؛ فإن الله عز وجل يثيب بقدر شكر الشاكرين ، وإحسان المحسنين . ولا تحقرن

ذنبا ، ولا تمالئن حاسدا ، ولا ترحمن فاجرا ، ولا تصلن كفورا ، ولا تداهنن عدوا ، ولا تصدقن نماما ، ولا تأمنن غدارا ، ولا توالين فاسقا ، ولا تتبعن غاويا ، ولا تحمدن مرائيا ، ولا تحقرن إنسانا ، ولا تردن سائلا فقيرا ، ولا تحسنن باطلا ، ولا تلاحظن مضحكا ، ولا تخلفن وعدا ، ولا تزهون فخرا ، ولا تظهرن غضبا ، ولا تمشين مرحا ، ولا تزكين سفيها ، ولا تفرطن فى طلب الآخرة ، ولا ترفع للنام عينا ، ولا تغمض عن ظالم رهبة منه أو محاباة .

وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تدخلن فى مشورتك أهل الرفه والبخل ، ولا تسمعن لهم قولا ؛ فإن ضررهم أكثر من نفعهم .

وليس شىء أسرع فسادا لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح ، واعلم أنك إذا كنت حريصا كنت كثير الأخذ ، قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم أمرك إلا قليلا ؛ فإن رعيتك إنما تجمع على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم .

ووال من صافاك من أوليائك بالإفضال عليهم ، وحسن العطية لهم .

واجعل للمسلمين كلهم من فيئك حظا ونصيبا ، وأيقن أن الجود من فضل أعمال العباد ، فأعده لنفسك خلقا ، وارض به عملا ومذهبا . وتفقد الجند فى دواوينهم ومكاتبهم ، وأدر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم فى معاشهم

يذهب الله عز وجل بذلك فاقتهم ، فيقوى لك أمرهم ، وتزيد قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا .

وحسب ذى السلطان من السعادة — أن يكون على جنده ورعيته ذا رحمة فى عدله وحيطته ، وإنصافه وعنايته ، وشفقته وبره وتوسعته . فزايل مكروه أحد البابين باستشعار فضيلة الباب الآخر ولزوم العمل به — تلق إن شاء الله تعالى به نجاحا وصلاحا وفلاحا .

واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس فوقه شىء من الأمور ؛ لأنه ميزان الله الذى تعدل عليه أحوال الناس فى الأرض ، وبإقامة العدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتأمن السبل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة ، ويرزق الله العافية والسلامة ، ويقوم الدين وتجرى السنن والشرائع فى مجاريها بتنجيز الحق والعدل فى القضاء .

واشتد فى أمر الله عز وجل ، وتورع عن النطق وامض لإقامة الحدود وأقلل العجلة ، وابعد عن الضجر والقلق ، واقنع بالقسم ولتسكن ريحك ، ويقر حدك وانتفع بتجربتك ، وانتبه فى صمتك واسدد فى منطقك ، وأنصف الخصم ، وقف عند الشبهة ، وابلغ فى الحجة ، ولا يأخذك فى أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ، ولا لومة لائم ، وتثبت ، وتأن ، وراقب وانظر ، وتفكر وتدبر واعتبر ، وتواضع لربك ، وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ، ولا تسرعن إلى سفك الدماء انتهاكا لها بغير حقها ؛ فإن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم .

وانظر هـذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزا ورفعة ولأهله توسعة ومنعة، ولعدوه كبتا وغيظا، ولأهل الكفر من معاديهم ذلا وصغارا ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل ، والتسوية والعموم فيه . ولا ترفعن شيئا منه عن شريف لشرفه، ولا عن غنى لغناه ، ولا عن كاتب لك ولا عن أحد من خاصتك وحاشيتك . ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا تكلف أمرا فيه شطط، واحمل الناس كلهم على أمر الحق ؛ فإن ذلك أجمع لألفتهم ، وألزم لرضا العامة .

واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا ، وإنما سمى أهل عملك رعيتك ؛ لأنك راعيهم وقيمهم ؛ فخذ منهم ما أعطوك من عفوهم، ونفذه فى قوام أمرهم وصلاحهم ، وتقويم أودهم . واستعمل عليهم أولى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعلم ، والعدل بالسياسة والعفاف، ووسع عليهم فى الرزق ؛ فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك، فلا يشغلك عنه شاغل ، ولا يصرفك عنه صارف ؛ فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك ، وحسن الأحدوثة فى عملك، واستجررت به المحبة من رعيتك وأعنت على الصلاح، فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وظهر الخصب فى كورك ، وكثر خراجك وتوافرت أموالك ، وقويت بذلك على ارتباط جندك ، وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة مرضى العدل فى ذلك عند عدوك ، وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وقوة وعدة ، فنافس فيها ولا تقدّم عليها شيئا تحمد عاقبة أمرك إن شاء الله تعالى .

واجعل فى كل كورة من عملك أمينا يخبرك خبر عمالك ، ويكتب إليك بسيرهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل فى عمله معاينا لأموره كلها . وإذا أردت أن تأمرهم بأمر فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك ؛ فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والصنع — فأمضه وإلا فتوقف عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدّته ؛ فإنه ربما نظر الرجل فى أمره وقد أتاه على ما يهوى فأغراه ذلك وأعجبه ، فإن لم ينظر فى عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره. فاستعمل الحزم فى كل ما أردت ، وباشره بعد عون الله عز وجل بالقوّة ، وأكثر من استخارة ربك فى جميع أمورك ، وافرغ من عمل يومك ، ولا تؤخره ، وأكثر مباشرته بنفسك ؛ فإن لغد أمورا وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت .

واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، فإذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيثقلك ذلك حتى تمرض منه ، وإذا أمضيت لكل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك . واستيقن أمر سلطانك ، وانظر أحرار الناس وذوى الفضل منهم ممن بلوت صفاء طويتهم ، وشهدت مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك ، فاستخلصهم ، وأحسن إليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، واحتمل مئونتهم ، وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم منافرا. وأفرد نفسك بالنظر فى أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمته إليك والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه فسل عنه أخفى مسألة، ووكل بأمثاله أهل الصلاح فى رعيتك، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم وخلالهم إليك؛ لتنظر فيما يصلح الله به أمرهم، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقا من بيت

المـال اقتداء بأمير المؤمنين (أعزه الله تعالى) فى العطف عليهم والصلة بهم ؛ ليصلح الله بذلك عيشهم ، ويرزقك به بركة وزيادة . وأجر للأضراء من بيت المـال ، وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثره فى الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دورا تأويهم ، وقوّاما يرفقون بهم ، وأطبـاء يعالجون أسقامهم ، وأسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف فى بيت المـال .

واعلم أن النـاس إذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيهم — لم ترضهم ولم تطب أنفسهم دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم طمعا فى نيل الزيادة وفضل الرفق منهم . وربما تبرم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه منهـا ، ويشغل ذهنه وفكره ممـا تناله به مئونة ومشقة . وليس من يرغب فى العدل ، ويعرف محاسن أموره فى العـاجل وفضل ثواب الآجل — كالذى يستقرى ما يقربه إلى الله تعـالى ، ويلتمس رحمته . وأكثر الإذن للناس عليك وأرهم وجهك ، وسكن حراسك واخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بشرك ، ولن لهم فى المسألة والنطق ، واعطف عليهم بجودك وفضلك . وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان ؛ فإن العطية على ذلك تجارة مربحة إن شاء الله تعالى .

واعتبر بمـا ترى من أمور الدنيا ، ومن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة ، والقرون الخالية والأمم البائدة . ثم اعتصم فى أحوالك كلها بالله سبحانه وتعالى ، والوقوف عند محبته ، والعمل بشريعته وسنته ، وبإقامة دينـه وكتابه ، واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ، ودعا إلى سخط الله عز وجل . واعرف ما يجمع عمالك من الأموال ، وما ينفقون منها .

ولا تجمع حراما ، ولا تنفق إسرافا ، وأكثر مجالسة العلمـاء ومشاورتهم ومخالطتهم . وليكن هواك اتباع السنن ، وإقامتها وإيثار مكارم الأخلاق ، ومعاليها . وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيبا فيك لم تمنعه هيبتك من إنهـاء ذلك إليك فى ستر ، وإعلامك ما فيه من النقص ؛ فإن أولئك أنصح أوليائك ، ومظاهريك لك . وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك ، فوقّت لكل رجل منهـم فى كل يوم وقتا يدخل فيـه بكتبه ومؤامرته وما عنده من حوائج عمالك ، وأمور كورك ورعيتك . ثم فرغ لمـا يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقـلك ، وكرر النظر فيه ، والتدبر له ؛ فما كان موافقا للحق والحزم فأمضه ، واستخر الله عز وجل فيه ، وما كان مخالفا لذلك فاصرفه إلى المسألة عنه ، والتثبت فيه . ولا تمنن على رعيتك ، ولا غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة ، والعون فى أمور المسلمين . ولا تضعن المعروف إلا على ذلك . وتفهم كتابى إليك ، وأمعن النظر فيه والعمل به ، واستعن بالله على جميع أمورك واستخره ؛ فإن الله عز وجل مع الصلاح وأهله . وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عز وجل رضا ، ولدينه نظاما ، ولأهله عزا وتمكينا ، وللملة والذمة عدلا وصلاحا . وأنا أسأل الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ، ورشدك وكلاءتك والسلام .

إذا افتخرت بالأبناء الآباء ، وازدهت المنابر بالخلفاء — فالمأمون سيد النجباء ورئيس الحكماء ، وزين العلم والعلماء ، ولكن انشقت الأسرة الحاكمة على نفسها ، وتولت هذا الشقاق يد الأعداء ، فما لبثت هذه الحال أن استعصى علاجها على الحكماء والأمراء والقـادة ، وفتح باب للشر كان مغلقا ، وكل هذه الحوادث ضربها الله مثلا للعظة والاعتبار ؛ ليأخذ كل

قائم منها بنصيب، و يضرب فيها بسهم ، و يتقى الله فى نفسه ، وفى رعيته و يجعل هذه الحوادث بمنزلة المدارس والواعظ له ؛ليقول الإنسان عنها على سبيل التعزية : (إن كانت أساءت قوما فلقد انتفع بهـا قوم آخرون ، فحال الكثير من هذه الحال قريب ، والعاقل من اعتبر بغيره ، وقاس يومه على ماضيه ، ونظر إلى الدنيا وقرأ عظات الدهر فى صفحات أيامه ؛ فإنها الصحيفة الباقية على ممرالأزمان التى لا تمحو سطورها يد الحدثان، ولايبليها الجديدان) .

المعتصم بالله

هو أبو إسحق محمد بن الرشيد ، ولد سنة ثمان وسبعين ومائة . كان ذا شجاعة وقوة وهمة وكان يقال له (المثمن) ؛لأنه ثامن الخلفاء من بنى العباس ، ثامن ولد للعباس ، ثامن أولاد الرشيد ، وملك سنة ثمان عشرة ومائتين ، واستمر فى ملكه ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، وعاش ثمانياوأربعين سنة ، وفتح ثمانيـة فتوح ، وأسر ثمانية ملوك ، وخلف ثمـانية أولاد ، وثمانى إناث ،

كانت قلوب الجنـود أشربت الخلاف بمـا شهدوه من الوقائع بين الأمين والمـأمون أزمان كانوا يساقون للعصيان لقضاء وطر النفوس الشريرة الخارجة على القائم بالخلافة ،فتأصلت فى النفوس حاجات ،وفى الطباع خصـال لا ينبغى أن تلامس قلب الجند المطلوب منهم الطـاعة والانقياد لأميرهم .

بويع للمعتصم فتشعب الجند عليه ونادوا باسم العباس بن المـأمون ، وأخذوا يطرقون الباب الذى دلهم عليه أمراؤهم من قبل، فأرسل المعتصم إلى العباس، وأحضره فبايعه ثم خرج العباس إلى الجند ، وقال لهم : قد بايعت عمى ،فسكتوا وانصرف المعتصم إلى بغداد ومعه العباس بن المأمون.

قال ابن المقفع : إن الذى يصـول على أعدائه بجيش لا يعلم دواخل صـدورهم — يكون مثله كمثل راكب الأسد : الناس تراه فتوجل منه ، وراكب الأسـد أشد وجلا لذلك اضطر المعتصم أن يستخدم نحوا من

خمسين ألفا من التركمان مخافة أن توقع به الجنود، واتخذ منهم لنفسه حراسا، وولاهم محافظة الثغور والحدود، فكانوا يزدادون يوما عن يوم حتى كانت القوة بأيديهم فى عهد الخلفاء من بعده كما ستقف عليه إن شاء الله .

من أجل هذا حكم جماعة من المؤرخين بأن الخلافة العباسية انتهت بالمعتصم .

كان المعتصم طيب الأخلاق، سديد الرأى، قويا ذا نجدة وهمة. يروى عنه أنه بلغه أن (نيوفيل) ملك الروم خرج، وأغار على بلاد الإسلام، وأن امرأة هاشميـة صاحت وهى فى أيدى جنده : (وامعتصماه !) فأجابها وهو جالس على سرير ملكه : (لبيك لبيك ! !) وقام من ساعته ناهضا، وجمع من وقته جيشا لم يماثله فيه أحد عددا وعُددا، ووقف ما يملكه من الضياع ثلثا لولده، وثلثا لله تعالى، وثلثا لمواليه وقصد مدينة (عَمُّورِيَة) وهى أشرف لدى الروم من القسطنطينية ولم يتعرض لهـا أحد منذ كان الإسلام، فوصلها وجرى بين المسلمين والروم عليها قتال شديد .

استولى المسلمون على المدينة المذكورة ، ومنحهم الله النصر العظيم ، وأراد المعتصم المسير بعد هذا النصر إلى القسطنطينية، والنزول على خليجها والحيلة فى فتحها برا وبحرا ، فأتاه ما أزعجه ، وأزاله عما كان قد عزم عليه : وذلك أن العباس بن المـأمون اجتمع عليـه بعض أناس وأغروه وبايعوه ، وأنه كاتب طاغية الروم ، فعجل المعتصم فى مسيره ، حتى يدفع عنه هذه الفتنة الداخلية . وهكذا أهل السوء ينتهزون مثل هذه الأوقات التى يتفرغ فيها القائم لعمل عظيم ، ويقفون أمامه بالفتن والمفاسد، ويسدون طريق سعادة الأمة الدنيوية والأخروية ، فتتخالف فى موضع الانفاق ،

وتتقاتل فى ساعة التناصر، وتنتهب فى أوقات الانتصاف ، وتدعوها خلال السوء لأن تستعد للوثبة عند عدم الحاجة إليهـا . وهذه الطائفة حائل مانع دون كل الفوائد والرغبات ، تجنى على نفسها ودينها وملتها جناية لا يغفرها لهـا رب الدين وخالق العالمين .

استكثر من الجند ، حتى ضاقت بهم بغداد ، فبنى مدينة (سُرَّمَنْ رَأَى) وتحول إليها ، وخرجت فى زمنه جماعة من الثوار ، وأصحاب الأقوال والمدعيات ، فمكنه الله من رقابهم، ولم يجتمع لخليفة ما اجتمع للمعتصم من الظفر والنصر .

أسر ملك أذربيجان ، وملك طَبَرِسْتَان ، وملك إستسيان ، وملك أشباصح ، وملك فَرْغَانَة ، وملك تُخَارَسْتَان ، وملك الصغدا ، وملك كَابُل ، وبلغ ما أراد وزاد عليه ، بحيث لو كانت هذه الهمة صادفت صفاء من الوقت وحفاظا من النظام ، وروحا من الطاعة ، وولعا وعشقا من الأمة فى تأييد الخلافة ، ولم تكن الأمور معرضة للخطر ، واستنباط ضروب الخروج على القائم لقضاء حاجة فى النفس — لكانت هذه المدة من أكبر وسائل السعادة للأمة الإسلامية .

وقد أسهب جماعة المؤرخين فى وصفه ، وسعة أخلاقه ، وكريم عشرته وأنه لم يكن أسمح منه بالنفقة فى وقت الحرب . وروى عنه أنه تصدق بمائة ألف ألف درهم . ومن مكارم أخلاقه أن انقطعت عنه أصحابه فى يوم مطير ، فبينما هو يسير — إذ رأى شيخا معه حمار عليه حمل شوك ، وقد زلق الحمار وسقط والشيخ قائم ينتظر من يمر به فيعينه ، فنزل المعتصم

عن دابته ، وخلص الحمار عن الوحل ورفع عليه حمله ، وانتظر أصحابه ، ووكل منهم به من يسير معه .

قال إسحق بن إبرهيم : سألنى المعتصم فقال : نظرت إلى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة فأفلحوا ، واصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم . فقلت : أجيب على أمان من غضبك؟ قال : نعم . قلت : ياأمير المؤمنين ، نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت ، واستعمل أمير المؤمنين فروعا فلم تنجب ؛ إذ لا أصول لها . فقال : يا إسحق ، لمقاساة ما مرّ بى طول هذه المدة أيسر علىّ من هذا الجواب .

إن عدم التخير فى انتقاء حاشية الخلافة التى تشرف على عموم الأمة يتقلب بها الحال فى كل وقت إلى أشأم ما يكون ؛ لأنهم لقربهم من الملك يحلون بجهلهم القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان التعاون ، والحرب موضع السلام ، ويصبح الاجتماع البشرى بسببهم معرضا للهلكة ؛ لأن هذه الطائفة أقرب الناس إلى الملك ، وهى التى تمثل طباعه وأغراضه ، ولا ينبغى أن يكون فى طباعهم تقصير عن الكمال الواجب لهم .

كان المعتصم يحب العمارة ويقول : إن فيها أمورا محمودة : فأولها عمران الأرض التى يحيا بها العلم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش الأنعام وترخص الأسعار ، ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش ، ولذلك كان يقول لوزيره محمد بن عبد الملك : إذا وجدت موضعا متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاء بعد سنة بأحد عشر درهما فلا تؤامرنى فيه . ولذلك كثر فى أيامه العمران واختطت الخطط ، واقتطعت القطائع والشوارع

والدروب ، وأفرد أهل كل صنعة بسوق . وبنى الناس ، وارتفع البنيان وشيدت الدور والقصور ، وسائر ما ينتفع به الناس .

ثم اختاره الله سبحانه وتعالى للدار الآخرة ، نقضى فى قصره المعروف بالخاقانى يوم الخميس لثمان بقين من شهر ربيع الأول سنة ست وعشرين ومائتين . وقال عند ما احتضر : (ذهبت الحيلة فليس لى حيلة) .

وكان للمعتصم كلمات فصيحة ، وشعر لا بأس به ، وسيرته هذه إذا لوحظ فيها ما طرأ على مصالح البشر من الفساد ، وما قذفت به الأمة الإسلامية نفسها فى مهاوى الشر : من الطيش والنقص — تكون خير نذير لما فيها من المنفعة ، وإشعار القلوب بلزوم الارتباط والاتحاد ، والتغلب على الشهوات التى تذهب حرمتها وتهدم بناءها ، وتفقد ما قصد بوضعها .

اللهم قنا شر نزعات الأهواء ، وانزع من نفوسنا حب الغلبة على ما حولنا ، وصرف إرادتنا فيما فيه نجاح البلاد والعباد ، وألهمنا معرفة العارفين ، وإرادة المختارين ؛ لنستشعر نفوسنا الخير التى هى مسوقة إليه آمين .

المتوكل على الله جعفر

هو المتوكل على الله أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد . بويع له فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

كان المتوكل ذكى الفكرة زكى الفطرة، ظهيرا للسنة يميل لعمل أهلها ونصرتهم والمدافعة عنهم ، فأخذ منذ ملك قياد الأمر فى رفع المحنة التى وقعت والبلية التى عظمت ، وهى محنة القول بخلق القرآن التى استمرت من المأمون إلى عهد المتوكل ، وانقضت السنون الطويلة والأمة لا تعان على صرف بليتها عنها مع أنها على غير طائل ، وقد أصاب جماعة المسلمين منها ضرر وأى ضرر . وأمر بترك النظر والمباحثة والجدال والترك لما كان عليه الناس أيام المعتصم والواثق ، وأمر بالتسليم والتقليد .

كتب المتوكل إلى الآفاق فى سنة أربع وثلاثين ومائتين ، بترك هذه البدعة واستقدم المحدثين إلى سامرا (سر من رأى) للتحديث وإظهار السنة والجماعة ، وأجزل عطاياهم وأكرمهم ، وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية، وأجلس أبا بكر بن شيبة فى جامع الرصافة، فاجتمع إليه نحو من ثلاثين ألف نفس. وأجلس أخاه عثمان فى جامع المنصور ، فاجتمع إليه أيضا نحو من ثلاثين ألف نفس ، وتهلل الناس فرحا ، وأطلقت الألسنة بالدعاء للمتوكل ، وبالغوا فى الثناء عليه ، ووافق ذلك إصابة ابن أبى دؤاد(محدث هذه البدعة ومبتدعها) بفالج صيره حجرا ملقى ، فأزاح الله هذه البلية ، ورفعها عن أمة نبيه صلى الله عليه وسلم ، واستراح الناس.

أخذت جماعة المؤمنين فى الثناء على المتوكل وتعظيمه، حتى قال قائلهم : (الخلفاء ثلاثة) : أبو بكر (رضى الله عنه) فى قتل أهل الردة ، وعمر بن عبد العزيز فى رد المظالم ، والمتوكل فى إحياء السنة ، وإماتة التجهم .

اللهم ، لا سيطرة على خلفاء الإسلام ، ولكن الإنسان يستخذى من نفسه إذا وجد أن عهدا طويلا وزمنا مديدا استوعب خلافة أربعة من الخلفاء — ينقضى فى أمر بدعة كان يسع فيها جماعة المسلمين ما وسع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام، والانصراف إلى فتح الفتوح ، والتوجه لما فيه المنفعة استجلابا لحسن السيرة والنظر فى الضوابط السلطانية ، والأمور الحربية بالجمع والتفريق، والتبعيد والتقريب ، والتشتيت والتأليف واستعمال المجربين الذين أمنت خيانتهم ، وتحققت أمانتهم حتى ينقلوا طبع الأمة من الميل إلى الاعتدال ، ويعرفوها صفات الخير والصلاح .

ينبغى للأمة الإسلامية أن تتعظ بمثل هذه الحوادث ، فتتجنب كل ما يؤديها للتفرقة ، ويجرها للتباغض ، ويجعل سهمها بينها ؛ فإن شر الافتراق قد جر عليها ما جره من الويل والثبور . وأصبحت وقد ضرب بينها بسور من التخاصم والتباغض ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وفى سنة ثمان وثلاثين ومائتين حدثت حوادث جوية عظيمة : منها خروج رياح بالعراق شديدة السموم ، أحرقت الزرع ، ومنعت الناس المعاش . وزلازل فى جهة إنطاكية ، خرت منها الجبال وتقطعت . ووقع من السماء برد فى حجم الحجارة ، وغارت عيون الماء بمكة ، فأرسل المتوكل لأهل البلاد التى دهمتها هذه الحوادث بما تعطف به من الإحسان .

وبعث إلى بلد الله الحرام بمائة ألف دينار لإجراء الماء من عرفات إليها.

انتهب المتوكل من أيام الخلافة التى كانت مثارا للمشاكل أياما اشتغل فيها بالفتوح : ففى خلافته فتح العباس بن الفضل أمير صقلية بها الفتوح العظيمة واستولى على قصر (يانة) .

ولما استولى المسلمون على جزيرة صقلية وافتتح جالية الأندلس (إقريطش) اغتاظ الروم ، وجهزوا نحو ثلثمائة مركب ، عليها ثلاثة أمراء ، فأخذت بالجولان فى عرض البحر الأبيض المتوسط ، تنتهز الفرص للإيقاع بالمسلمين .

من ذلك أنهم انتهوا إلى مدينة دمياط بمائة مركب ، وخرجوا على غرة من أهلها ، وكانت فارغة من الجند ، فأحرقوا وسبوا ، وتقدموا حتى وصلوا مصر (الفسطاط) ، ثم رجعوا ، ويقال : إنه لم يتعرض لهم أحد فى طريقهم .

وفى خلافته افتتح (بغا) قائد جنوده مدينة (تَفْلِيس)[1] وغزا المسلمون الروم عدة مرات ، فغنموا وفتحوا وغزا الفضل بن خاقان بالأساطيل فافتتح حصن أنطاكية ، وفى خلافته أغار البجاويون [2] على مصر وامتنعوا من أداء الخمس ، حتى ولى محمد بن عبد الله القمى أُسْوان وقفط

(١) تفليس قاعدة الحكومة المحلية فى بلاد القوقاز التابعة لدولة الروسيا الآن .

(٢) وهم البشارية الساكنون بالجهة الشرقية من النوبة بين البحر الأحمر والنيل والآن من خراريهم هناك وفى أسوان ولهم عمل فى حوادث السودان .

والأُقْصُر و إِسْنَا وأَرْمَنْت ، وأمر بحربهم فزحف عليهم ، فانهزموا واستأمنوا على أداء الخراج كما كان .

كانت أيام المتوكل أحسن الأيام وأنضرها ؛ لحبه فى استقامة الملك وشمول الناس بالأمن ، ورخص السعر ، وبث العدل ، وكونه وسطا فى كل شىء : فى جوده وإمساكه ، ومضاحكه وهزله ، ومجونه وطربه . وكان ولعا بالأدب محبا للشعر والشعراء وهو الذى يقول فيه بعضهم :

فأمسك ندى كفيك عنى ولا تزد
فقد خفت أن أطغى وأن أتجبرا

وظهرت فى مدته ثياب لباس الملحم ، وهى فى نهاية الحسن والصبغ وجودة الصنع ، وعرفت بالثياب المتوكلية . وحدث فى أيامه بناء لم يكن الناس يعرفونه ، وهو المعروف بالحيرى ، والكين والأروقة نسبة إلى ملوك الحيرة : وهو عبارة عن رواق فيه صدر وميمنة وميسرة ، وخزانة للكسوة وبيت لما يحتاج إليه من شراب وغيره .

ولم يعلم بأحد متقدم فى صناعته فى جد أو هزل إلا وقد حظى فى دولته بنصيب ، وسعد فى أيامه ، فكانت أيامه مزهرة بكل جميل .

كان ولعا بحب أهل الخير والصلاح ، عاشقا للعلماء ، حتى إنه لما ظهر فى عهده فى مصر (ذو النون) وتكلم فى ترتيب الأحوال ، ومقامات أهل الولاية وأنكر عليه ذلك عبد الله بن عبد الحكم رئيس مصر وأجل أصحاب ابن أنس رضى الله عنه فى زمانه وقال : بأنه أحدث علما لم يتكلم فيه السلف ورماه بالزندقة وبلغ الأمر المتوكل — أمر بإحضاره فاستدناه وسمع كلامه ، فولع به وأحبه وأعلى منزلته وأكرمه ، وكان يقول :

(إذا ذكر الصالحون فحيهلا بذى النون) . وكان متمذهبا بمذهب الشافعى (رضى الله عنه). وهو أول خليفة اتخذ مذهبا وكان يقول : أيها الناس ، إن محمد بن إدريس المطلبى قد صار إلى رحمة الله وخلف فيكم عملا حسنا فاتبعوه تهتدوا . اللهم ارحم محمد بن إدريس رحمة واسعة وسهل علىّ حفظ مذهبه وانفعنى به !

وكان لا يأنف من الموعظة : من ذلك أنه جمع فى داره مجلسا من العلماء وكان فيهم أحمد بن المعدل وغيره ، فخرج عليهم فقام الناس غير أحمد بن المعدل فقال المتوكل لعبيد الله : (ما باله ؟) قال : إن فى بصره سوءا . فسمعها أحمد بن المعدل فقال : يا أمير المؤمنين ، ما فى بصرى سوء ، ولكن نزهتك من عذاب الله : قال النبى صلى الله عليه وسلم : " من أحب أن تمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار " فسر به المتوكل وجلس إلى جانبه . ومن كلامه مع يزيد المهلبى : إن الخلفاء كانت تتصعب على الرعية لتطيعها ، وأنا ألين لهم ليحبونى و يطيعونى .

كان مدركا خطورة مركز الخلافة والمسئولية التى تحيط به ، فكان يذوق منها مرارة العواقب كما يسيغ حلاوة المآرب وكان فى أغلب أوقاته مطرقا مفكرا .

دخل عليه مرة وزيره الفتح بن خاقان ، وهو على هذه الحال فقال له : ما هذا الفكر ؟ فوالله ما على ظهر الأرض أطيب منك عيشا . قال : يا فتح ، أطيب منى عيشا رجل له دار واسعة ، وزوجة صالحة ، ومعيشة حاضرة ، لا يعرفنا فنؤذيه ، ولا يحتاج إلينا فنزدريه .

كان المتوكل يروى الحديث عن أبيه وجده ، ومات فى عهد خلافته الكثير من خيار الناس والعدد الكبير من شرارهم : فمن خيار الأمة الأعلام ذو النون المصرى ، وأبو ثور ، والإمام أحمد بن حنبل (ودفن بباب حرب فى الجانب الغربى بمدينة السلام) ، وعبد الملك بن حبيب إمام المالكية ، وسحنون صاحب التآليف ، وإسحق بن راهويه . ومن أصحاب الفتن أحمد بن أبى دؤاد صاحب فتنة القول بخلق القرآن ، وأبو بكر الهذلى العلاف شيخ الاعتزال ، وجعفر بن حرب من كبار المعتزلة . فأزال الله بموتهم عن الأمة ما كان محيطا بها من الخبال وما اكتنفها من سوء الحال.

وأخرج أحمد بن حنبل قال : سهرت فى ليلة ثم نمت فرأيت فى نومى كأن رجلا يعرج به إلى السماء وقائلا يقول :

ملك يقاد إلى مليك عادل متفضل بالعفو ليس بجائر

ثم أصبح الصباح فجاء نعى المتوكل من (سر من رأى) إلى بغداد .

وكان له تعلق شديد بالفتح بن خاقان وزيره . ومن أغرب ما وقع أن المتوكل قال للبحترى : (قل فىّ وفى الفتح شعرا ؛ فإنى أحب أن يحيا معى ، ولا أفقده فيذهب عيشى) . فقال فى هذا المعنى :

كيف أخلفت يا حبيبىّ وعدى وتثاقلت عن وفاء بعهدى ؟
لا أرتنى الأيام فقدك يا (فتـ ـح) ولا عرفتك ما عشت فقدى
أعظم الرزء أن تقدم قبلى ومن الرزء أن تؤخر بعدى
حذرا أن تكون إلفا لغيرى إذ تفردت بالهوى فيك وحدى

فقتلا معا .

وأغرب من ذلك ما حدث به البحترى قال: اجتمعنا ذات يوم فى مجلس المتوكل فتذاكرنا السيوف . فقال بعض من حضر : وقع لرجل من أهل البصرة سيف من الهند ليس له نظير . فأمر المتوكل بكتابة كتاب إلى عامل البصرة بشرائه مهما بلغ . فنفذ الكتاب . قال البحترى و بينا نحن عند المتوكل فى ليلة أخرى إذ دخل عليه عبيد الله ، والسيف معه ، فسر المتوكل به وانتضاه واستحسنه وجعله تحت ثنى فراشه، فلما كانت الغداة طلب من الفتح بن خاقان غلاما يثق بنجدته وشجاعته ، فجاءه (بباغر) التركى، فدفع إليه السيف و زاد له الرزق، ولم تمض الأيام حتى قتل المتوكل بذلك السيف من يد (باغر) المذكور قياما بغرض المنتصر .

كان السبب فى قتل المتوكل ذلك الخطأ الشديد ، وسوء التصرف فى أمر ولاية العهد، ولم يعتبر بما كان من أمر الرشيد فى الأمين والمأمون، فبايع المتوكل بولاية العهد لابنه المنتصر ، ثم المعتز ، ثم المؤيد ، وولى كل واحد منهم قسما من المملكة .

ثم بدا له أن يقدم المعتز لمحبته لأمه ، فسأل المنتصر أن ينزل عن ولاية العهد فأبى فكان يحضره المجلس العام ، ويحط من منزلته ، ويتهدده ويشتمه و يوعده . فما زال المنتصر يرتقب الفرص ، حتى تحقق أن الجيش التركى الذى اتخذه المتوكل انحرف عنه لأمور ، فاتفق معهم على قتل أبيه ، فدخل عليه خمسة وهو فى جوف الليل فى مجلس أنسه ، وقتلوه هو ووزيره الفتح بن خاقان وذلك فى خامس شوال سنة سبع وأربعين ومائتين .

ألا إنما المطمئن للدنيا مغرور ، والساكن للدهر جاهل ؛ فهى دار لا يدوم نعيمها ولا يتم سرورها ، ولا يؤمن محذورها ! قرنت السراء بالضراء ، والشدة بالرخاء والنعيم بالبلوى ، وجعلت خاتمة كل نعيم فيها زواله ! عزيزها ذليل وقويها مهين ، وغنيها محروب ، وعظيمها مسلوب. وليس أبقى على صفحات أيامها من عمل مقصود به الخير والبر والإحسان؛ فهى التى تعجز عن أن تأكله بأنياب فنائها ، ولا يزال يذكر به فاعله ، وهو على جدة لا يبلى . فالله سبحانه وتعالى يوفقنا للعمل النافع الدائم الذى لا تبليه الأيام ولا تفنيه الأعوام آمين .

نبذة تاريخية

قد أتينا فيما سبق بما شاء الله أن نكتب من تراجم خلفاء الدولة العباسية، واتصل بنا الكلام إلى ترجمة (الخليفة المتوكل) ، فخالفنا بذلك أكثر فلاسفة المؤرخين ؛ لاعتبارهم تلاشى الدولة العباسية واضمحلالها من قبل ذلك : أى (بخلافة المعتصم) ؛ لأنه انحرف عما يوجبه عليه حق الجماعة؛ لأن أسلافه اصطنعوا العرب وغير العرب ، عدا الترك ، والمعتصم اصطنع الترك و بعض الفرس، فجعل منهم كبار قواده وعمال جبايته وحاشية جنده وخلافته .

ولكن لما كان من العدل إظهار الفضل وكان للمتوكل (رحمه الله) حسنات كثيرة من أجلّها : وقوفه أمام فتنة القول بخلق القرآن التى هدت الخلافة العباسية، وصرفتها عن كثير من وجوه الخير حتى أبطلها ،ثم تصديه لإحياء السنن الشريفة المعطلة ، و إماتة البدع السيئة المنتشرة حتى سمى (أبا بكر الثانى) — ختمنا به تراجم تلك الخلافة ؛ ليكون خاتمة خير لها ولكيلا تغيب عن الذكر أفعاله وفضائله هذه .

اضمحلت الخلافة العباسية بالأسباب التى اضمحلت بها الخلافة الأموية من جهة الخروج عن جادة العلم والعدل ، وزادت عليها عوارض أخرى أصابتها متتالية ، فكانت أشد بلاء من تلك الأسباب المتقدمة : منها كثرة المذاهب واضطهاد الأئمة ، والتفرق فى الاعتقاد ، وظهور أصحاب الدعوات الباطلة : كالباطنية ، والفاطمية ، والشيعة ، والمعتزلة ،

والراوندية ، وغيرهم . ومنها كثرة دخلاء الاعاجم الذين فعلوا فى الدولة العباسية ما لا يفعله العدو الفاتك بعدوه .

إن المستقرئ للحوادث المتتبع لمجرى الأحوال يحكم بأن دخول طائفة الديلم والأعاجم فى خدمة الخلفاء مقصود منه اضمحلال هذه الخلافة بأيديهم. أدخلت هذه الطائفة نفسها فى خدمة الخلافة بقصد الانتقام ، والأخذ بثأر الفتوح الإسلامية التى قامت بها العرب فى بلادها من أول فتح المدائن إلى عهد الفتوح العباسية (والخلفاء غفلوا عن ذلك) وهو ماتؤيده الأعمال الوحشية التى وقعت من عامة الجند ، والأقوال الصريحة التى سمعت من كبار قوادهم .

أظهر هذا وذاك أن فى النفوس حزازات قديمة ، وفى الصدور ضغائن كامنة، وأن كل أعمالهم أعمال المنتقم لنفسه المضمر المتشفى بالعدوان : أماتوا المنتصر مسموما ، والمستعين بالله مذبوحا ، والمعتز بالله معذبا عطشان ، والمقتدى بالله مقتولا ، والمتقى بالله مسمولا[1] وهكذا لكل خليفة عندهم قود . ودام هذا الانتقام والعدوان متواصلا منهم على مقام الخلافة ، وهم يتفننون فى إيصال المكروه إليه و إيقاع الأذى به : كالخلع والتمثيل ، والتقتير والتعطيش ، حتى نمت فيهم القوة وخافتهم الناس اتقاء شرهم ، وظهر كامن الغيظ من رؤسائهم (والظلم كمين فى النفس : القدرة تبديه والضعف يخفيه) فسمع من (مرداويج) مقدم الديلم بِأَصْبَهَان الذى مات فى خلافة الراضى سنة عشرين ومائتين يقول: (سأرد دولة العجم ، وأمحق دولة العرب) (رواه السيوطى فى تاريخه المعروف بتاريخ الخلفاء) وقد

(١) سمل العين فقؤها بحديدة محماة .

أعينوا على ذلك بقدر من الله ، وقضاء سابق ، بخلوها عن بغداد ، وفعلوا بآثارها مالا يفعله السوس بالصوف .

الدخلاء فى كل ملة ودولة موضع تنازع مستمر وظلم من الإحن جالكة ، وكثيرا ماهدموا قصور السلاطين والأمراء من كل أمة . وشر هذه الطبقة لايقف عند حد . وأقرب مذكور منهم من استخدمتهم الدولة التركية قديما فى خاصة خدامها من الأرمن والبلغاريين ، وغيرهم من أهل البوسنة والهرسك .

كانت ولا تزال يد الأغراض من كل دولة تحرك هؤلاء الأجانب من وراء الحجاب ، فيتحركون وفق إرادتها (كأشباح اللاعب) ، فينشئون سحبا من الأوهام والأباطيل ، يقذفون بها فى عقول الخاصة ، فضلا عن العامة ، حتى يتم لهم من الفتنة ما يريدون .

وصلوا بسوء أفعالهم فى الدولة العباسية إلى أن قتل الأخ أخاه ووقعت بين الناس حال من الوحشة حتى ظنوا بأنفسهم سوءا وخاف بعضهم كيد بعض. وإنها لموعظة تبقى بقاء الدهر ، تزعج الغافل ، وتنبه لب الذاهل ، وتحمل المعتبر بها من أهل السلطان على رعايتها ؛ ليستقيم إليه أمر الناس .

. تخللت الخلافة العباسية شئون وأمور ذات بال بعضها يذكر لنيل الأجر بإذاعة الفضل ، وبعضها يذكر حتى يتعظ به المهتدى . ولا بد لنا من أن نأتى عليها قبل الانتقال إلى ذكر (حماة الإسلام) فى الدول الإسلامية الأخرى ، لأنها لهذه الخلافة تبع : منها تراجم الأربعة الأئمة رضوان الله عليهم وما خصهم من الفضل ، وابتلاهم من المحن كأبى حنيفة ، ومالك بن أنس والشافعى ، وابن حنبل (رضى الله عنهم) لموافقة أزمانهم لصدر الخلافة

العباسية ، ولأنهم زينة تراجم (حماة الإسلام) إذ هم بهجة مفاخر الأنام. ومنها ما حدث فى مصر من التحالف مع الخلافة العباسية فى عهد المعتضد ، ونزوعها للاستقلال جريا وراء أغراض (أحمد بن طولون) والشقاء الذى نجم عنه فى الدولة العباسية والويل الذى جره هذا العمل على أهل مصر ؛ لاتباعهم هواه وسيرهم على وفق خطرات أفكاره بلا تروٍ ولا تفكر ، حتى انجلى الأمر بصرف وجوه المصريين عن باب الخلافة ، وأصبحوا ملعبة الدولة الإخشيدية وخلافة الفاطميين التى سنت لهم سننا تعدت ضروب المحال . ومنها دخول القائد جوهر بجيش المعز لدين الله مصر ، والأسباب التى تقدمت هذا الفتح وسهلته والأحوال التى استكشفها المعز لدين الله فى الأمة المصرية قبل أن يدخلها قائده بجيشه فاتحا ؛ لما فى ذلك كله من موعظة لمتعظ ، وعبرة لمعتبر ، وزجر لمزدجر. ثم نأخذ بعد ذلك فى سرد تراجم سادتنا خلفاء الخلافة الأموية فى الأندلس التى ابتدأت بالخليفة عبد الرحمن حفيد هشام الأموى ، فجمعت أشتات الفضائل ، ورفعت للعلوم والفنون أعظم منار ، وكانت زينة الإسلام وفخره ، وعزه وشرفه ، والله الموفق .

أبو حنيفة النعمان

رضى الله عنه

هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى . اختلفوا فى تاريخ ميلاده اختلافا كثيرا بين سنة إحدى وستين وسنة ثمانين .

هو أول من حفظ الشريعة بالتلقين ، وكان على يده انتشار السنة ، وتمام حاجة العالم الإنسانى بها .

هو أحد أركان العلماء ، وأحد الأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المتبعة . أدرك عصر الصحابة ، ورأى أنس بن مالك ، وأطبق العلماء على علمه ودينه وورعه وزهده . ووفقه الله تعالى حتى انتشر مذهبه فى الآفاق ، وأخذ كثير من الناس بقوله . عصمه الله عن القول بخلق القرآن ، والقول بالقدر والقول بالإرجاء ، مع أن هذه الأقوال وغيرها كانت من مقتضى السير الطبعى للزمن الذى كان فيه ، وكانت سبب المودة والقربى للخلفاء والأمراء ، ولكن أبى الله أن تسطو على عقل أبى حنيفة .

كان حسن الوجه ، ربعة ، ذا شهامة عظيمة ، من أحسن الناس منطقا ، وأحلاهم نغمة ، وأنبههم حالا ، حسن الهيئة ، جميل الثياب والبزة ، كثير العطر ، يعرف بطيب الريح قبل أن يقبل ، شديد الكرم ، حسن المجلس ، كثير المواساة لإخوانه ، وصفه صاحبه أبو يوسف للرشيد إذ سأله

عنه فقال : قال الله تعالى : "ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد" . وهو عند لسان كل قائل . كان والله أبو حنيفة شديد الذب عن محارم الله ، مجانبا أهل الدنيا فى دنياه طويل الصمت ، دائم الفكر لم يكن مهذارا ولا ثرثارا . إن سئل عن مسألة وكان عنده علم فيها أجاب عما سمع ، وبما ثبت عنده . ما علمت يا أمير المؤمنين رجلا أكثر منه اشتغالا بدينه عن نفسه وعن الناس ، لا يذكر أحدا إلا بخير . فقال هرون : (هذه أخلاق الصالحين) . وقال الشافعى رضى الله عنه : (ما قامت الناس عن رجل أعقل من أبى حنيفة) . وقال جعفر بن الربيع : (أقمت عند أبى حنيفة خمس سنين فما رأيت أطول صمتا منه إذا ترك ، فإذا سئل عن الفقه تفتح وسال كالوادى) .

كان لا يفتر لسانه فى خلوته عن تلاوة القرآن ، وربما أتم فى بياض نهاره ختمة ، وفى سواد ليلته أخرى ، وكثيرا ما صلى الفجر والعشاء بوضوء واحد ، ولم يسمع حالفا فى عُرض حديثه .

يروى عنه أنه لما أراد طلب العلم جعل يتخير ، ويسأل عن عواقب العلوم ونتائجها ، فلم يجد علما يسأل فيه صاحبه ، ويفتى الناس بما يغنيهم به غير الفقة ، فلزمه وترك علم الكلام الذى كان مشتغلا به ، وأتى أبا إسماعيل حماد بن أبى سليمان — وهو شيخ وقور حليم لم ير أفقه منه فى زمانه ، وله مناقب كثيرة — فلازمه ووجد عنده كل ما طلب ، وما زال حتى كان يجلس فى الحلقة بحذائه ، واستنابه وأمره أن يجلس مكانه أزمان تغيبه بالبصرة ، ولم يفارقه حتى مات ، فكانت صحبتهما ثمان عشرة سنة .

أخذ حماد بن أبي سليمان (رضى الله عنه) العلم عن إبرهيم النخعى ، وهو أخذه عن علقمة والأسود ، وهما أخذاه عن عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن مسعود (رضى الله عنهم) فلما مات إبرهيم النخعى (رضى الله عنه) وكان مفتى الكوفة جلس أبوحنيفة رضى الله عنه للإفتاء بعده بإجماع من جماعة المسلمين والتابعين ، واختلف إليه الناس ، وكان أكثرهم اختلافا إليه صاحبه أبا يوسف ، ولم يزل كذلك حتى استحكم أمره ، واحتاج إليه الأمراء وذكره الخلفاء . جلس للإفتاء ليتفع به الناس و يسهل عليهم معرفة حدود الله (سبحانه وتعالى) و يردهم إلى أوامره و يحظر عليهم المحرمات .

وذكر فى مسنده ما يقرب من مائتى شيخ أخذ عنهم العلم ، و روى عنهم الحديث ، وفيهم من التابعين ، حتى إن بعضهم رتب أسماءهم على حروف الهجاء فلم يخل حرف واحد منها .

حدث أبو الحسن بن على الخطيب عن على بن بدر القاضى قال : حدثنا هلال بن بدر أبى العلاء عن أبيه عن أبى حنيفة قال : لقيت سبعة من الصحابة وسمعت من كل واحد منهم خبرا .

كان غاية فى الفراسة والفطنة ، حتى كاد يدرك بها المغيب . ونوادره فى ذلك كثيرة جدا .

وهو أول من اخترع معرفة عد اللبن والآجر بالتقصيب ، فعل ذلك فى عد آجر سور بغداد لما كلفه المنصور ذلك .

ومن مكارم أخلاقه أنه كان له جار يعمل نهاره أجمع ، فإذا جن الليل رجع إلى منزله ، وقد حمل لحما فطبخه ، أو سمكة فشواها ، ثم لا يزال يشرب و يغرد بصوته :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

حتى يأخذه النوم وأبو حنيفة يسمع فى كل ليلة جلبته . ثم فقده ليلة وعلم أن العسس أخذوه ، فركب واستأذن على الأمير ، وسأله تخليته ، فقال له الأمير : وكل من أخذ فى تلك الليلة . فلما خرج الفتى قال له أبو حنيفة (رضى الله عنه) : (أأضعناك ؟) وناوله ما يستعين به على نقصان دخله فى أيام حبسه ، فكشف الله بهذا الفعل الغمة عن عقل الفتى ، حتى تاب واختلف إلى أبى حنيفة حتى تفقه .

كان مع اشتغاله بالفقه يبعث بالبضائع إلى بغداد للتجارة ، و يجريها مجرى الفضل على إخوانه ، فيشترى ما يحتاجه شيوخه من المحدثين والفقهاء ، و يعطيه إياهم محتسبا ربحه من أثمانها و يقول : هذا رزقكم أجراه الله على يدى : مثل ذلك أن فقيها احتاج مرة لثوب خز فقال : ما لونه ؟ قال : كذا . فقال : اصبر . ثم استدعاه بعد أيام وقال : هذه حاجتك وثمنها درهم . فقال له الفقيه : تهزأ بى ؟ قال : لا ، والله . اشتريت ثو بين بعشرين دينارا ودرهم : بعت أحدهما بعشرين دينارا و بقى هذا بدرهم ، وما كنت لأربح على صديق . فأخذه وشكره .

لقد دفع أبو حنيفة (رضى الله عنه) لمقامات من الحكم تتنافس عليها الناس وتتصنع لها ، فامتنع عنها طلبا للسلامة فى دينه ، ومنع العطايا فلم يقبلها ، ومنعه عفاف النفس وطهارة الذيل .

أراد يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى أمير العراق أن يدخله فى (الطراز) أى صدقات بيت المال فأبى . وطلب منه أبو جعفر أن يلى قضاء الكوفة، فلم يقبل فضربه بالسياط ، وسجنه ، وقيده بأثقل الحديد ، فلم يقبل ، وجاءته أمه وقالت له : يا نعمان ، إن علما ما أفادك غير الضرب والحبس لحقيق بك أن تنفر عنه . فقال : ياأماه، لو أردت الدنيا ما ضربت، ولكن أردت وجه الله تعالى وصيانة العلم، ولم أعرضه للهلكة .

صدق القائل : (الرجال سواء حتى تقع المحن) . تحتاج الوقفة التى وقفها أبو حنيفة (رضى الله عنه) أمام أبى جعفر لعقل كبير يرشده ، وعزم شديد يؤيده ، وهداية عظيمة تنبهه . حلف عليه أن يلى القضاء فحلف أبو حنيفة ألا يفعل . فكرر الخليفة اليمين ، فثناها أبو حنيفة . فقال له الربيع : أمير المؤمنين يحلف، وأنت تحلف؟ فقال : إن أمير المؤمنين أقدر منى على كفارة أيمانه. فأمر بحبسه وما زال فيه حتى مات سنة خمسين ومائة وعمره سبعون سنة. وقيل : إنه توفى فى اليوم الذى ولد فيه الشافعى (رضى الله عنه) . وتولى غسله الحسن بن عمارة فلما غسله قال : رحمك الله ! يامن لم تفطر ولم تتوسد يمينك بالليل منذ ثلاثين سنة، والله لقد أتعبت من بعدك !

كثرت الأقوال فى كيفية حبسه وتعذيبه ، حتى قيل : إنه كان يخرج فى كل يوم ويضرب ، فلما تتابع عليه الضرب مرض ومات . وقيل : إنهم ضيقوا عليه الأمر ، حتى فى طعامه وشرابه . ومهما يكن فى هذه الأخبار من المبالغة فإن الحبس متفق عليه لتواتر خبره ، وكفى به عذابا لمثل هذا الإمام العظيم : " أشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل " .

هذا الشعور الذى يهيئ النفوس لارتقاء درجات الكمال ، والوصول لأطراف المراتب والغايات فقده كثير من علماء الإسلام ، فأصبحوا يشترون رضاء الناس بغضب الله تعالى ، حتى أدى ذلك للسكوت عن النهى ، وأوجب هذا حدوث البدع والفوضى الدينية ، وانصرف كل واحد من الناس إلى هواه فانحطت رتبة العلم .

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما

نعم لو حدثوا الناس عن جلاله ، وشرحوا للعقول ما خفى من شئونه و بينوا مداخل السعادة الدنيوية والأخروية فيه ، وجاءوا الناس معبرين بما تحتمله طاقة العقول ، ولا يبعد عن متناول الأفهام — لقومت نفوس ، وكبحت شهوات ، ولكن هذا ما أراده الله ولا حول ولا قوة إلا به .

هذه بعض كلمات من ترجمة هذا الإمام وما كان لنا ولا لغيرنا أن نحصيها وندونها فى مثل هذا القليل ، ولكن هذه القطرة تدل على مكان ذلك البحر . والغرض التشوف لمثل هذا الكمال ونهوض الهمم ؛ لقطع سلاسل التقليد و إصلاح النفوس التى غفلت ولهت عن أصول مكارمها التى كان ينبغى أن تفاخر بها الأجيال ، وتسمو بها فوق كل كمال .

القاضى أبو يوسف

رضى الله عنه

هو يعقوب بن إبرهيم بن حبيب بن سعد الأنصارى ، أحد الصحابة (رضى الله عنهم) . ولد فى سنة ثلاث عشرة ومائة ، وكان جده ممن أبلى البلاء الحسن فى الوقائع النبوية ، وشهد الخندق ، فرآه النبى صلى الله عليه وسلم يقاتل قتالا شديدا على حداثة سنه ، فمسح بيده الشريفة على رأسه ، فبقيت فى الذرارى بركتها .

مات أبوه ، وهو صغير فقير ، لم يكن له مايطعمه الخبز ، ويسقيه الماء ، فأسلمته أمه إلى قصار ، فكان يفر منه ، ويمر على حلقة درس أبى حنيفة النعمان (رضى الله عنه) فلما طال ذلك عليها جاءت إلى الإمام ، وقالت له : إن ولدى هذا صبى يتيم فقير ، وقد أفسدته علىّ . فقال لها : دعيه فسيأكل الفالوذج فى أطباق الفيروزج ، وناولها مائة درهم وقال : إذا فرغت فأعلمينى ، وكان يتعهدها بعد ذلك كأنما يخبر بنفاد ماعندها . ولم يزل أبو يوسف حتى صار رأس الحلقة ، وانتهت إليه الرآسة الدينية والدنيوية ، والإمامة فى الفقه والحديث ، وحفظ التفاسير والسير وأيام العرب .

كانت تهمز بأبى يوسف نفسه إلى رقىّ وكمال ، وسعادة حال ، وتسمو به إلى مقام رشد بلغه طريق الهدى الإلهى الداخل تحت قوله تعالى : "إنا هديناه السبيل" فقدر بهذا السلوك على تمزيق الحجب ، وأصبح إماما فى الحديث ، ونفسه البارة تنتقل فى رياض المعرفة ، كأنما ذلك من بركة تلك المسحة .

نذكره بعد أبى حنيفة (رضى الله عنهما) ؛ لأنه فى مقام حسن الختام لبراعة استهلال ترجمة الإمام ؛ إذ المذهب الحنفى أخذ عن أبى حنيفة بالتلقين ، وحفظ عن أبى يوسف بالتدوين . وكما ملأ الإمام به الصدور — حلى به القاضى الصدور ، فنقله من ضيق النفوس إلى سعة الطروس ، فهو إكليل التاج ، ومفتاح ذلك الرتاج الذى كمل نمو نبات العلم بتعهده ، وتكامل علو بنائه الشامخ على يده ؛ فهو أول من وضع الكتب فى أصول الفقه ، وأملى المسائل ودونها ، وبث علم أبى حنيفة (رضى الله عنه) فى أقطار الأرض ، ولم يكن فى زمنه بين أصحابه ثقة أحفظ لسنة النبى وأوعى لكتاب الله منه .

تولى القضاء ببغداد لثلاثة من الخلفاء : المهدى ، والهادى ، والرشيد على كراهة منه لرقى مقام القضاء . وكان يقول : ليتنى لم أدخل فى القضية . على أن زين دست القضاء كان محبوبا لخلفاء وقته وزمانه . وكان عند الرشيد حظيا مكينا . وهو أول من دعى قاضى القضاة ؛ لأن الخليفة كان يستنيبه فى سائر الأقاليم التى كان يحكم عليها . وهو أول من غير لباس العلماء بهذا الزى . وما كان لأحد أن يطمع فى رياسة بلدة فيها أبو يوسف .

جمع شروط القضاء وآدابه وأحكامه : من صدق اللهجة ، وعفاف الطعمة وحسن السمت ، وكثرة الوقار ، وعظم الأناة ، وعزة النفس ، وكرامة الخلق ، وقلة الحرج ، ولطف الطبع ، ورقة الحجاب ، وسعة الصدر ، والصلابة فى الحق ، والتواضع لله ، والثقة فى ذاته ، والإيثار فى إقامة الحدود ، والمساواة بين الخصوم ، والتثبت فى سماع الحجة ، فلم يتعمد جورا ، ولم يحاب خصما . وكل أحكامه كانت بما يوافق الكتاب والسنة .

كان سريع الجواب (ونعم السلاح الناصر الجواب الحاضر) : حج مع الرشيد معادلا له ، فلما دخل مكة صلى (هرون) بالناس الظهر ركعتين ، فلما سلم قام أبو يوسف ، وقال : يا أهل مكة ، (أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر) فقال رجل من فقهاء مكة : نحن أفقه من أن نعلّم ، فقال له أبو يوسف : (لو كنت فقيها ماتكلمت فى صلاتك) فطرب لها (هرون) والحاضرون . ومن أغرب ما سمع عن محفوظه ، وسعة اطلاعه أنه لم يجر على لسانه فى حديثه مع الرشيد فى أثناء مصاحبته فى سفره هـذا شيئا معادا ، فلم يكرر له خبرا ذكره ، ولم يعد له حكاية رواها ، ولا وصل إلى مكان إلا وأخبر الرشيد باسمه ونعته له ، واستشهد عليه بشيء إن كان ثم ذلك . وناهيك بإمام تخرج على أبى حنيفة (رضى الله عنه) وسمع من أبى إسحاق الشيبانى ، ويحيى ابن سـعيد الأنصارى وتلك الطبقة . وكان أفقه أهل عصره ، لم يتقدمه فى زمانه أحد ، يحفظ من المنسوخ عشرين ألفا فما ظنك بالناسخ ؟

(كل ذى نعمة محسود) وما أدراك بنعمة اشتملت على الرياسة والجلالة والقـدرة والسعة فى سطوة الدين والدنيـا والارتقاء على دست القضاء ، ومقام الفتوى الممثل كل منهما للأمانة والديانة والفضيلة والداعى للقرب من مقام الخلافة ، ونفوذ الكلمة وشدة السطوة ؟

أراد الأعداء الحط من هذا المقام العالى ، فما وجدوا إليه سبيلا ، فجاءوا لبعض أبواب ، وصاغوا منها مسائل مجعولة فى الفقه والفتوى ، خرّجوها على غير وجهها ، وتوسـعوا فيها بأكثر من حدودها ، وافتروها عليه ، وتصنعوا فى روايتها عنه ، كأنهم يستدلون بها على سعة علمه ، وسمو قوته وقدرته ، وكأنهم من أشد المطرين له المعجبين برأيه فيها ، وهم فى الحقيقة

من ألد أعدائه الذين يسرون له العداوة والبغضاء . نشروا ذلك بيد بعض المسلمين الذين تدخل عليهم الحيل ، ولا تتكشف لهم أوجه المسائل ، ثم عدوها عليـه بعد انتشارها من أشد العيوب ، وهو برىء منها فما أجدره بقول العربى : زنوه وحدوه .

كأنمـا كان أبو يوسف (أستغفر الله) آلة لتوجيه الأيمان بعد توكيدها فى كل شيء ، وكأنمـا كان الخلفاء فى وقته على غير رأى .

ذكروا له أشياء كثيرة فى مسائل طلاق وزواج وعتق وغيره — تجنبناها ، ورووا عنه لطائف تخيرنا منهـا بعض الشيء : فمن ذلك ما يحكى أن الرشيد خاصم زبيدة فى شيء فأغضبها وأغضبته ، فحلف عليها بالطلاق ألا تبيت ليلتها فى ولايته ومملكته ، ثم ندم على ذلك لشدة حبه وفرط غرامه بها ، فسأل الفقهاء عن وجه الحيلة ، فعجزوا ، ثم استدعى القاضى أبا يوسف ، وسأله : هل من حيلة ؟ قال : نعم . قال : وما هى ؟ قال : قل لها يا أمير المؤمنين : تبيت فى المسجد ؛ لأنه لا ولاية لك عليه ؛ فإن الله تعالى يقول : " وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا " فسر الرشيد بذلك كثيراً .

ومـما يذكر فى معرض لطائفه أيضا أن الرشـيد رأى فى ليلة من الليالى خنفساء تدب على بساطه ، فأمر بتعذيب الخادم ، فقال له أبو يوسف : يا أمير المؤمنين ، إن الحيوان بجملته يألف الأضواء ، والخادم قد تعهد البساط ، ونحاها عنه ، ولكنها كلما نحيت تعود . فأمر الرشيد أن تحمل وتنحى بعيدا ، ففعل فعادت ، ثم أمر أن تحمل وتبعد أكثر من الأول ، ففعل فعادت ، فعفا الرشيد عن الخادم بفضل القاضى .

ومن لطائفه أنه كان يحادث من يختلفون إليه فى حلقة درسـه بمجلس إليه مرة رجل ، وأطال الصمت فقال له : ألا تتكلم ؟ فقال له : متى يفطر

الصائم ؟ فقال : إذا غابت الشمس . قال : فإن لم تغب إلى نصف الليل؟ فضحك أبو يوسف وقال : قد أصبت فى صمتك ، وأخطأنا فى استدعاء نطقك .

ففى الصمت ستر للغبى و إنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

توفى سنة اثنتين وثمانين ومائة (فعزى الإسلام بعضه بعضاً بموته) ومشى الرشيد فى جنازته ، وصلى عليه ، ودفنه فى مقبرة أهله من مقابر قريش بكرخ بغداد .

وقد أوصى قبل موته بكثير من ماله لأهل العلم بمكة ، والمدينة ، والكوفة ، و بغداد . واستمرت موارد خيراته ومآثره جارية ما شاء الله أعواما وقرونا .

ومما يحسن إيراده زيادة فى شرف الإمام أبى حنيفة النعمان رضى الله عنه — أن الرشيد دعا أبا يوسف ليلة من الليالى ، ليسأله فى شىء دق على فهمه درکُه ، فأجابه فيه أحسن جواب ، ولشدة سرور الرشيد بذلك ناوله قطعة من الفالوذج كانت فى صحن من الفيروزج من خاصة متاع الخلفاء ، فبكى أبو يوسف ، فسأله الرشيد ، فأخبر الخبر الذى قدمناه حكاية عن أبى حنيفة (رضى الله عنه) لأم أبى يوسف حين كانت تنهاه عن الحضور فى حلقته وقوله لها : سيأكل الفالوذج فى طباق الفيروزج .

يصح أن يقال عن أبى يوسف : إنه أول من حفظ علم الفقه عن أبى حنيفة (رضى الله عنهما) ، ورواه فأدى الأمانة حقها ، والسعادة كل السعادة فى اختيار العلم المؤدى للخير الأبدى ، والحياة الطيبة المرضية ، وهو علم الدين المرتبط به كل علم .

ينبغى أن تكون سيرته هذه مثالا يحتذيه أهل العلم يتلقونه من أساتذتهم بالكرامة ، و يؤدونه عنهم بالأمانة ، و يؤثرون لذة المحمدة به ، والثناء عليهم بسببه عن كل لذة . فهنالك تجتمع لهم الهداية مع العلم ، وتصح النية ، فتقام الفرائض وتحيا السنة ، و ينصرف الناس من الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الغش إلى النصيحة ، ومن الرغبة إلى الزهد ، ومن الكبر إلى التواضع .

مثل هذه الأخلاق الشريفة لا يضيع صاحبها ، ولا يفتقر كاسبها ، ولا يخيب طالبها ، ولا تحط مراتبها ، و يصبح المتحلى بها بمنزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك يهدى الناس سواء السبيل .

أنى لنا بأصحاب هذه الأخلاق ، حتى يذهب عنا ببركتها هذا الطيش والإهمال ، والإغفال ، واللجاج فيما لا فائدة فيه ، والعناد فى كل شىء ؟

أى حرية ومدنية تلتمس بأجل وأعظم من الحرية والمدنية الحقة التى تضمنها أدب الدين الذى دعا الناس لعرفان أنفسهم ، وأنهم مميزون بالعقل والفكر ومشرفون بحرية الإرادة فيما يرشدان إليه ؟

حجبت العقول بغرور النظر إلى هذا الظاهر ؛ فاللهم خلصنا من كل تقليد استعبدنا ، وافتح لنا أبواب فضلك التى لم تغلق دون طالب ولا ضاقت أبوابها على راغب ، واكشف عن عقولنا غمة الوهم ، وأنعم على أفكارنا بنعمة الفهم ، وعرفنا مقادير النعمة التى نحن فيها حتى نتعلق بها ونقوم بالشكر عليها .

سيدنا مالك بن أنس

رضى الله عنه

هو الإمام مالك بن أنس (رضى الله عنه) إمام دار الهجرة فى زمانه وفقيهها ، وأحد الأئمة الأربعة الأعلام . ولد سنة ثلاث وتسعين من الهجرة . وهو من الطبقة السادسة من أهل المدينة .

كان أشقر شديد البياض ، ربعة من الرجال ، كبير الرأس أصلع . وكان لا يخضب شيبه ؛ لما صح عنده من أن عليا كان لا يخضب ، حسن الهيئة والبزة يكره الثياب الخلقة ، ويعد ذلك مثلة . وكان نقش خاتمه : حسبنا الله ونعم الوكيل . فسئل فى ذلك فقال : سمعت الله تعالى يقول عقب هذه الآية : " فانقلبوا بنعمة من الله وفضل " . وكان مجلسه مجلس وقار وحلم ، يحوط فيه المستفهم عن الشىء هيبة شديدة .

كان لا يحدث إلا وهو متوضئ ، ولا يركب فى المدينة مع ضعفه وكبر سنه ؛ احتراما لبلد فيها جثة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان لا ينقطع عن المسجد وتشييع الجنائز ، وعيادة المرضى ، وقضاء الحقوق . فلما كبر انقطع عن ذلك كله ، واحتمل له الناس ذلك .

كان كامل النفس ، يعتصم بحبل الدين وآدابه فى مجالس الخلفاء : قدم المهدى المدينة ، فبعث إليه بألفى دينار ، فقبلها . ثم وجه إليه الربيع يطلب منه ملازمته إلى مدينة السلام ، فقال له : قل لأمير المؤمنين : المال عندى على حاله . وكان يدخل على أبى جعفر ، وكانت وجوه بنى هاشم تقبل يده ، ورزقه الله العافية من ذلك .

وكان شديد الحرص أمينا على العلم : قال جرير : إن أبا جعفر المنصور عزم على أن يحمل الناس على (موطئه) فقال له : لا تفعل يا أمير المؤمنين ؛ فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ، ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق لهم ، وعملوا به ودانوا ، وقد أصبح ردهم عما اعتقدوه شديدا . فدع الناس وما هم عليه .

لو أن فقيها من فقهاء هذه الأزمنة أقبل عليه أحد أعوان أولى الأمر وأشار إليه بحمل الناس على ما قاله لعد ذلك فخرا وعزا ، وسطا على عامة الناس بهذا القول ؛ وذلك لأنه يرى مصلحة نفسه لا مصلحة الدين ، ويقدم منفعته على جميع أنواع المنافع .

روى عن غير واحد من التابعين ، وأخذ القراءة عرضا عن نافع ، وهو أثبت أصحابه ، وروى عنه وحدث خلقا كثيرا من الأئمة منهم سفيان الثورى ، وسفيان بن عيينة ، وعبد الله بن المبارك ، والأوزاعى ، وابن مهدى ، وابن جرير ، والليث بن سعد ، والشافعى ، والزهرى ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وغيرهم . وكان يقول : العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم . وكان يقول : لا يؤخذ العلم عن أربعة : سفيه يتجاوز الحد ، وصاحب هوى يدعو إلى بدعته ، وكذاب يهون عليه تبديل حديث الناس ، وشيخ لا يعرف ما يحمل . وكان يقول : ما أفتيت حتى شهد لى سبعون ولو نهونى لانتهيت . ومن قوله : ليس العلم بكثرة الرواية ، ولكن نور يضعه الله تعالى فى القلب .

قال يحيى بن معين : كان مالك من حجج الله تعالى على خلقه ، إماما لا يبلغ الحديث إلا صحيحا ، ولا يحدث إلا عن ثقات الناس . وعن الشافعى

رضى الله عنه : إذا جاءك الحديث عن مالك فشد به يديك . ولا غرابة فى ذلك ، فقد قال عبد الله بن وهب : لولا أنى أدركت مالكا والليث بن سعد لضللت . وهو أحد الأئمة الأربعة فى الأمصار الأربعة : سفيان الثورى بالكوفة ، ومالك بالحجاز ، والأوزاعى بالشام ، وحماد بن زيد بالبصرة .

ومن فضائله ما رواه الترمذى من حديث سفيان بن عيينة عن جرير عن أبى الزبير عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنهم : يوشك أن تضرب الناس أكباد الإبل فلا يجدون أحدا أعلم من عالم المدينة .

كان شديد الكراهة للغيبة . ومن قوله فيها : كان عندنا بالمدينة قوم لا عيوب لهم ، فتكلموا فى عيوب الناس ، فصارت لهم عيوب . وكان عندنا قوم لهم عيوب ، فسكتوا عن عيوب الناس ، فنسيت عيوبهم .

جاء مستقبل الزمان مصدقا لخبر الصحيح النبوى الذى لا ينطق عن الهوى ، فكان سيدنا الإمام مالك رضى الله عنه إمام زمانه .

ارتقت أمانة العلم عنده لدرجة لا تقوى عليها نفوس الكافة ، فنزل منزلا لم يخرج عنه حتى خرج من الدنيا : جاءه رجل ليستفتيه فى مسألة فقال له : لا أحسنها . فقال له : قد ضربت إليك من كذا وكذا ، لأسألك عن هذا وتقول لى : لا أحسنها . ما ذا أقول لأهلى ؟ قال له : قل لهم : سألت مالكا فقال لى : لا أحسنها .

امتحنه الله سبحانه وتعالى على مقدار مبلغ استطاعته ومكانته وأمانته ، فاستدعاه الخليفة ، واستفتاه فى أمر فأفتاه بما لم يوافق هواه وغرضه ، فأمر بضربه فضرب ، ومدت يده حتى خلع كتفه .

ما زال الله (سبحانه وتعالى) يعلى من قدر مالك (رضى الله عنه) بعد ذلك الضرب ، حتى أصبح فى رفعة لا يسمو عليها مقام ، وتجلى عليه مولاه بمظهر العزة ، حتى كأن تلك السياط حلى تحلى به ، وفضل سما به قدره .

توفى رضى الله عنه فى المدينة فى شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومائة ، ودفن بالبقيع .

إن الناظر فى أمر الدين الإسلامى بعين الحقيقة يجد أنه كلما اتسع صاحبه فى وسائله ، وتفرغ لحكمه ، وسبر حقائقه — اتسع فى حرية الفكر ، وأصبح متدرعا بدرع الصدق والوفاء والأمانة ، وقبض على زمام الملكات الفاضلة ، وأصبح وليس له هم إلا احترام الحقوق على اختلاف أنواعها ، ولا يستطيع أن يبيح منها إلا ما يحل تناوله . ولو أن جميع أهل العلم حاسن بعضهم بعضا بهذه الخصال ، ونافسوا معاصريهم بهذه الكمالات وجذبوا الناس إلى مذاهبهم وعرفوهم شرف تمسكهم بالدين ، وكشفوا لهم عن وجوه الحقائق ، وطالبوهم بإصلاح سرهم ، كما طالبوهم برعاية أجسادهم ، وعرفوهم طهارة الباطن كما فرضوا عليهم نظافة الظاهر — لقامت كلمة الدين خير قيام ، وأعتقوا عبيد الغايات والعادات ، وخلصوا أسرى التقليد ، وأصبح الناس على نور من ربهم عظيم .

لم يخالف الإمام فى فتواه الخليفة إلا وهو متحقق أن هذا العمل فى رضا الله سبحانه وتعالى ، وأن لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، فلو أن كل مسئول امتنع ، ولم يوافق السائل على هواه — لرجع جميع المقترفين لهذا العمل عن عملهم هذا . ولكن عظمة السلطان وصولته أنست الناس أمر دينهم ، فأصبحوا يخالفون الشرائع ؛ ليؤلفوا قلوبهم ، ويدخلوا

السرور عليهم بتحسين فعلهم، فجر هذا الأمر إلى أمور فظيعة سيئة ، حتى أصبح الدين لعبة عند بعض الملوك ، وأهانوا الشرائع المرعية والفضائل المحمية وهذا أمر قد علم الكثير من المسلمين حاله ، وقدروا ضرره : فكم جلبت الفتاوى من البلايا والرزايا : فى المسائل السياسية ، والمدنية ، مما لا حاجة لذكر تفصيله ، حتى إن أحد سلاطين آل عثمان أوصى بإبادة الفتاوى التى أصدرها له علماء وقته تخلصا من عواقب ما فيها يوم القيامة: "يوم لا تغنى نفس عن نفس شيئا والأمر يومئذ لله" .

محمد بن إدريس الشافعى

رضى الله عنه

هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصى .

ولد بالشام سنة خمسين ومائة ثم وصل إلى مكة فسكنها ، وأخذ يتردد بين الحجاز والعراق، ثم استوطن مصر، واتخذها دار إقامة حتى توفى بها عند بنى عبد الحكم .

روى عن الإمام مالك بن أنس ، ومسلم بن خالد الزنجى ، وابن عيينة و إبرهيم بن سعد، وفضيل بن عياض ، وعن عمه محمد بن شافع و جماعة غيرهم . وروى عنه ابن حنبل والحميدى ، وأبو الطاهر بن البويطى ، والمزنى ، ومحمد بن عبد الحكم و جماعة غيرهم .

كان حافظا : حفظ الموطأ فى ليال وأخذ العربية من صميم العرب ، ولزم هذيلا، و بقى فيهم مدة يرحل برحلتهم ، و ينزل بنزولهم ، ثم رجع إلى مكة ، وجعل ينشد الأشعار ، ويذكر الآداب ، ويروى الأخبار وأيام العرب ، فمر به رجل من الزبيديين فقال له : يا أبا عبد الله ، عزيز على ألا يكون مع هذه الفصاحة والذكاء فقه لتسود أهل زمانك به . فقال : ومن بقى حتى يقصد؟ فقال له : (مالك) سيد المسلمين. فوقع فى قلبه ذلك وعمد إلى الموطأ فحفظه ، ورحل إلى مالك ، فأخذ عنه الفقه .

كان مالك يثنى على فهمه وحفظه ، ووصله بهدية لما رحل عنه وكان الشافعى يقول : مالك معلمى وأستاذى ، منه تعلمت ، وما أحد أمنّ علىّ من مالك ، وقد جعلت مالكا حجة بينى و بين الله سبحانه وتعالى .

ظهر مذهبه رضى الله عنه فى مصر، وكثر مقلدوه فيها، ثم انتشر بالعراق وخراسان ، وما وراء النهر ، والبلاد القاصية ، لا يعرفون حجة بينهم و بين الله سبحانه وتعالى غير الشافعى . قاسموا الحنفية فى الفتوى والتدريس فى جميع الأمصار، وعظمت مجالس المناظرات بينهم، ثم أدى ذلك إلى ظهور كتب الخلافيات، ووصل الأمر إلى رجال من أصحاب المظاهر فى المذهبين ، فكان ما كان من الحرب العوان التى قامت بين أهل المذهبين، وعقلاء الأمة الإسلامية يتلافون للآن أمرها، ولا يعانون عليه، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

نزل الإمام على بنى عبد الحكم بمصر، فأخذ عنه جماعة من بنى عبد الحكم وابن القاسم ، وابن المواز وغيرهم . ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة (الفاطميين) ، وتداول الناس بها فقه أهل البيت ، وفنى من سواهم ، إلى أن ذهبت دولة العبيديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فرجع إليهم فقه الشافعى وأصحابه من أهل العراق والشام، وعاد إلى أحسن ما كان، ونفق سوقه، واشتهر منهم محيي الدين النووى ، وابن الرفعة ، وتقى الدين بن دقيق العيد ، وتقى الدين ابن السبكى ، والسراج البلقينى أكبر علماء عصره، وغيرهم من أجلة العلماء وأكابر الفضلاء .

ثناء العلماء عليه بسبقه فى العلم والفضل

قال محمد بن عبد الحكم : لزمت الشافعى، فما رأيت أبصر منه بأصول العلم والفقه ، كان صاحب سنة وأثر وفضل ، مع لسان فصيح ، وعقل رصين صحيح .

وقال ابن عيينة : إنه كان أفضل فتيان زمانه . وكان إذا جاء ابن عيينة أمر من التفسير والفتيا قال : سلوا عنه هذا، أى الشافعى . وكان يقول له مسلم بن خالد الزنجى شيخه ، وهو شاب فى مقتبل عمره : قد آن لك أن تفتى يا أبا عبد الله . وقال يحيى بن سعيد القطان : إنى لأدعو فى صلاتى للشافعى ؛ لما أظهر من القول بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أحمد بن حنبل : ما أحد يحمل محبرة من أصحاب الحديث إلا وللشافعى عليه منة ، وقال : ما عرفت ناسخ الحديث من منسوخه ، حتى جالسته . وكان أفقه الناس بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كان الشافعى كالشمس للدنيا والعافية للناس وليس منه عوض .

وقال ابن معين لصالح بن أحمد بن حنبل : ما يستحى أبوك، يمشى وقد أخذ بركاب الشافعى ؟ قال صالح : فقلت ذلك لأبى . فقال : قل له : إن أردت أن تتفقه فخذ بركابه الآخر .

كان حجة فى اللغة، وآية فى الأنساب والأخبار . قال ابن هشام : ذاكرته مرة وهو بمصر فى أنساب الرجال، فقال له الشافعى بعد ساعة : دع هذا؛ فإنه لا يذهب حفظه عنا ، ولا عنك ، ولكن خذ فى أنساب النساء ، فلما أخذ فى ذلك بقى ابن هشام ساكتا . وكان يقول : ما ظننت أن الله (عز وجل) خلق خلقا مثل هذا الإنسان .

وقال النسائى: كان مفردا فى ثقته وأمانته، وقد ألف الخطيب أبو بكر ابن ثابت البغدادى كتاب الحجة بالشافعى ، وأثبته فى الصحيح . وروى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اللهم اهد قريشا؛ فإن عالمها يملأ طباق الأرض علما ! اللهم كما أذقتهم عذابا فأذقهم نوالا". فكان وجوده (رضى الله عنه) مصداق قوله صلى الله عليه وسلم .

واتصل به أيام محنته القول بخلق القرآن . ومن كلامه : كلام الله ليس بمخلوق ، ومن قال مخلوق فهو كافر .

بعض حكمه رحمه الله تعالى

من ولى القضاء ولم يفتقر فهو سارق . من حفظ القرآن نبل قدره ، ومن تفقه عظمت قيمته ، ومن حفظ الحديث قويت حجته ، ومن حفظ العربية والشعر رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه العلم . قيل للشافعى: كيف أصبحت ؟ فقال: كيف أصبح من يطلبه ثمان : الله تعالى بالقرآن ، والنبى صلى الله عليه وسلم بالسنة، والحفظة بما ينطق، والشيطان بالمعاصى، والدهر بصروفه ، والنفس بشهواتها ، والعيال بالقوت ، وملك الموت بقبض روحه .

توفى الشافعى فى خلافة المأمون (رضى الله عنهما) بمصر عند عبد الله بن عبد الحكم ، وإليه أوصى ، وذلك ليلة الخميس منسلخ رجب سنة أربع ومائتين، ودفنه بنو عبد الحكم فى قبورهم ، وصلى عليه السرى أمير مصر .

كان (رحمه الله) خفيف العارضين ، أسمر اللون . وقد ألف كتاب (الأم) وهو من أجل الكتب فى أصول الفقه . جمع بين صحة المأخذ ،

وبين متانة العبارة فهو الأم الولود حقيقة لكل حقيقة فى علم الفقه ومعرفة الأحكام .

قال الربيع: كنا جلوسا فى حلقة الشافعى بعد موته بيسير ، فوقف علينا أعرابى فسلم ، ثم قال : أين قمر هذه الحلقة وشمسها ؟ قلنا: توفى . قال : رحمه الله وبكى بكاء شديدا ثم قال : رحمه الله وغفر له ما كان ! كان والله يفتح ببيانه منغلق الحجة ، ويسد من خصمه واضح المحجة ، ويغسل من العار وجوها مسودة ، ويوسع بالرأى أبوابا منسدة . ثم انصرف .

وهو ثالث الأربعة الأئمة الذين تفتخر بهم جماعة المسلمين بممارستهم للكتاب الكريم ، وتمكن الاستنباط ، وكمال الفقه ، وحسن الصناعة ، وتمام العلم ، المتفردين بمعرفة أحكام الله سبحانه وتعالى . هداهم الله لخدمة العلم ، وبهم يهدى الله من يشاء إلى الصراط المستقيم .

الامام أحمد بن حنبل بن هلال الشيبانى

رضى الله عنه

هو الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل المروزى الأصل . خرجت أمه من مرو حاملا ، فولدته (رحمه الله تعالى) سنة أربع وستين ومائة فى ربيع الأول ببغداد ، ولم يربه أبوه ؛ لأنه تركه طفلا . نشأ ببغداد فى طلب العلم وخدمته ، وسافر فى طلب الحديث من شيوخه ، وروى عن كثير من كبار العلماء والمحدثين فدخل مكة والمدينة والشام واليمن والكوفة والبصرة والجزيرة ، وسمع من سفيان بن عيينة ، وإبرهيم بن سعد ويحيى القطان وغيرهم . نشأ عفا مستقيما يخاف الله ويخشاه ، فلا يتعدى محارمه أبدا .

روى أبو عبد الله قال : كان أحمد بن حنبل معنا فى الكتاب ، وكان الخليفة بالرقة ومعه خاصته فيكتبون الكتب إلى منازلهم ، فتبعث النساء إلى المعلم : أن ابعث لنا بابن حنبل ؛ ليكتب جواب كتبهم ، فكان إذا دخل البيوت لا يرفع طرفه أبدا ، حتى كان الناس تعجب من حسن طريقته ، وأدبه عند ذكره .

بدأ فى طلب الحديث ، وهو ابن ست عشرة سنة ، ورحل فكتب عن علماء كل بلد . وأول من كتب عنه الإمام أبو يوسف وكان يقول : أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر ، واجتهد كثيرا فى نقل الأحاديث الصحيحة ، وبلغ ما نقله منها مقدارا عظيما جدا فاق حد التصور ، وأعجب به معاصروه .

كان متأدبا غاية الأدب ، متواضعا غاية التواضع ، يرى ذلك عليه من غير تصنع ولا محاباة : فكان من فرط إجلاله لمشايخه لا يتكلم فى مجالسهم بشىء ، ويجيب من يسأله فى ذلك بأن الإنسان له لسان واحد ، وأذنان ؛ ليسمع أكثر مما يتكلم .

كان وحيدا فى عصره فى الاشتغال بالعلم والحفظ : كان يصلى العصر ثم يستند قائما إلى أصل منارة مسجده ، فتحتاط به الناس ، يسألونه الحديث وهو يجيبهم ويحدثهم عن ظهر قلبه ، والكل قيام على أرجلهم إلى أن تجب صلاة المغرب لا يفرغ ولا يتنهون .

لم يتزوج إلا بعد الأربعين ، حتى لا يتشاغل عن العلم بكسب ولا نكاح ، فبلغ من العلم ما أراد وكان يقول : كتبنا الحديث من ست وجوه وسبع وجوه ولم نضبطه . كيف يضبطه من كتبه من وجه واحد ؟

ومن لطائفه : أنه سئل عن رجل حلف بالطلاق أنه لابد أن يطأ امرأته الليلة فذهب إليها فوجدها حائضا فقال : تطلق امرأته ولا يطؤها ؛ لأن الله قد أباح الطلاق ، وحرم وطء الحائض .

وكان لا يرى وضع الكتب لمسائله وكلامه ، ولو رأى ذلك لكانت له تصانيف كثيرة ولدونت فى أسفار . ومع ذلك فله المسند صنفه سنة ١٨٠هـ وهو مائة وعشرون ألف حديث ، تكلم فيه على الناسخ والمنسوخ ، والتاريخ المقدم والمؤخر ، وفسر جوابات القرآن ، والمناسك حتى قل أن تقع مسألة إلا وله فيها نص فى الفروع والأصول ، وربما عدمت فى تلك المسألة نصوص الفقهاء الذين صنفوا وجمعوا .

روى عنه جماعة كثيرة منهم البغوى ، ومسلم والبخارى وابن أبى الدنيا وأحمد بن أبى الحوارى وغيرهم . وقد ذكر المؤلفون له مناقب كثيرة جدا تدخل فى باب السعى فى طلب العلم والزهد فى المال ، وذكر محنته وشمائله .

كان إمام المحدثين فى عصره ، وكان من أصحاب الإمام الشافعى ، ولم يزل مصاحبا له إلى أن ارتحل الشافعى إلى مصر . وقال الشافعى : خرجت من بغداد وما خلفت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل .

دعى (رحمه الله) إلى القول بخلق القرآن (تلك الفتنة التى أيقظها أحمد بن أبى دؤاد فعمت خيرة الخلق ، وأصابتهم ببلاياها) فلم يجب عنها بشىء فضرب ضربا مبرحا ، ثم حبس وعذب بأنواع العذاب ، وهو مصر على الامتناع ، وكان ذلك فى شهر رمضان سنة عشرين ومائتين .

كان حسن الوجه ربعة ، ولم يكن فى آخر عصره مثله فى العلم والورع .

توفى ببغداد سنة إحدى وأربعين ومائتين ، ودفن فى مقبرة باب حرب ، وحضر جنازته من الخلق ما لا يحصى ، وإليه ينسب أحد المذاهب الأربعة الإسلامية ، وتعرف أتباعه بالحنابلة .

ومقلدوه قليلون لبعد مذهبه عن الاجتهاد ، وأصالته فى معاونة الرواية والأخبار بعضها لبعض ، وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها ، وهم أكثر الناس حفظا للسنة ورواية الحديث الشريف .

وكان كثيرا ما يتمثل بقول الصديق (رضى الله عنه) إذا مدحه مادح : اللهم أنت أعلم منى بنفسى ، وأنا أعلم بنفسى منهم . اللهم اجعلنى خيرا مما يظنون ، واغفرلى ما لا يعلمون ولا تؤاخذنى بما يقولون .

نبذة تاريخية فى مصر

ماذا كانت مصر فى هذه الأيام : أزمان انتقال الدولة من الأمويين إلى العباسيين ، وأزمان اضمحلال الدولة العباسية ؟

كانت على غير انتظام فى حالها ، ولا ثبات فى أمرها ؛ لأنها كانت تقوم وتقعد تبعا لأهواء الولاة والعمال ؛ لعدم وجود التربية القومية فيها ، وضعف الرأى العام بين بنيها ، وكونها فى الوجود فى منزلة غريبة من السذاجة التى تلقتها عن الأسلاف : منزلة تبعد عن منازع البداوة بعدها عن مقاصد الديانة ، فهى لا بدوية تحمى ذمارها بالسيف ، ولا حضرية تعيش تحت ظل الشريعة أو القانون ؛ وإنما العامل الوحيد فيها مقاصد الحكام ، وهى عندها أعظم من كل إرادة ؛ لأنها كانت لا تطيق مقاومتها أبدا .

كان المصطنعون يتفانون فى تنفيذ إرادة الحكام ، مهما كانت ، حتى تذبذبت الأمة ، وانطمس منها مكان نور التفكر والتدبير ، وأصبحت بحيث ترضى بالخضوع للتغلبين عليها من الولاة الذين لا يزرعون فيها إلا ما تنزع إليه طبائعهم ، ولا يوصلون إليها من جاه الخلافة وعزها وأدبها وارتقائها إلا بمقدار ضئيل ، ولذلك لم يصبها من الخيرات فى عهد الدولة الأموية ، ولا من المنافع العامة فى أزمان الدولة العباسية — مقدار ما كان ينتظر ويظن من خلافة كخلافة الوليد بن عبد الملك المروانى الذى وضع يسراه على الغرب ، ويمناه على الشرق ، أو خلافة كخلافة أبى عبد الله المأمون العباسى الذى أحيا معالم العلوم .

كانت كأنما هى فى جو آخر ، مخالفة للناس فى العادات والأحوال ، مع ما طبعت عليه من السكون والدعة ، قانعة بما فيها من الثمرات ، مؤثرة الراحة على المتاعب لا تتعدى مبلغ قوتها وعادات من قبلها .

دخلت عليها سنة ٢٥٦ هـ وفيها أحمد بن طولون عاملا للخلافة العباسية ، فوسوس له شيطانه ، حتى نادى بالاستقلال ، وسطا على الخلافة بسيفها ، وحارب الخلافة بجيوشه التى جمعها من أهالى مصر وغيرها ، واستماتوا فى هذه الحرب حتى عجز عنه الموفق أخو الخليفة المعتمد على الله ، ووقع الصلح بينهما .

وقد تسامع الناس بالذى جرى من بعض أهل مصر ، ومن عاملها . فكانت هذه الحادثة من أشأم الحوادث ، وأقبحها أثرا وموقعا فى أمر الدين ، وجماعة المسلمين : مزقت الخلافة العباسية كل ممزق ، وفتحت عليها باب التجزؤ والتبديد ، وحذا حذوه العمال ، فاستقلت جهات بخارى وصارت تدعى (المملكة الشرقية) ، وجهات أفغانستان ، وهم نحو من ستة (ملايين) أو ثمانية من سكان الجبال والبوادى ، جلاد شداد ، وصارت (المملكة الغزنوية) ، ثم صارت (الدولة السلجوقية) ، وتبعهم (سيف الدولة بن حمدان) بالموصل . هذا فى آسيا . واستقل فى إفريقية بنو الأغلب ، وهم الذين كان ملكهم من حدود مصر إلى حدود الغرب الأقصى ، واتبعوا مسلك ابن طولون حذوك القذة بالقذة[1] فأصبحت الخلافة العباسية مشذبة الأطراف ، مقطوعة الأوصال ، مفتوحا عليها باب لا يسد ، وكان هذا أهم عوامل انحطاطها ، وأكبر الدواعى التى أطمعت خصومها فيها .

(١) القذة بالضم ريش السهم (جمعه قذذ) .

تنزع فى بعض الأحايين نفوس بعض الولاة أو العمال الشريرة لمثل هذا العمل ، دون أن تكون الأمة والبلاد مستعدّة لما عساه أن يطرقها من الشدائد من بعده ، ولا قائمة بما ينبغى لها أن تقوم به من العادات التى تحفظ كيانها بعد هذا التفرد .

الاستقلال : هو عبارة عن قيام دولة فإن وقع على غير طبيعة الملك تهدم وهلك صاحبه ؛ لأن المستقل يلزمه أن يكون ظاهرا حتى على ذات الشوكة التى يريد أن يفصم عنها ، وينادى باستقلاله دونها ، لذلك تحاماه الكثير من أرباب الأمر ، وأصحاب الملك والسلطان ؛ مخافة أن ينقلب الأمر فتقع البلاد والعباد فى شر غير منتظر . نذكر منهم الأمير عبد الرحمن الداخل ، والسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب : دخل الأول بلاد الأندلس ، وتناول الملك بقوة شكيمة ومضاء عزم ، وبعد أن انقاد له الأمر سمى نفسه بالأمير ، ولم يدع (بأمير المؤمنين) لا هو ولا أحد من بنيه إلى الأمير الثامن ؛ تأدبا مع الخلافة بمقر الإسلام ومنتدى العرب .

وملك الثانى مصر فاتحا ، وخلع العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، ثم جدد الدعوة والخطب للعباسيين مع انقطاعها من مصر قرونا وأعواما .

كان ذلك الاستقلال لحكومة مصر على غير طبيعة الملك ، فلم يكسبها الرقى والنجاح والفلاح الذى أصاب غيرها منه . كأن الأمة لم تستعد له بعد ولم تختمر فيها مادة المعاونة مع صاحب الملك بالرأى والمفاوضة فيه ومعرفة مهمات القطر العامة والخاصة ، فتركت البلاد لمباشرة السلطان بغير مشاركة له فى أى صنف من أحوال ملكه ، شأن الكثير من الممالك الإسلامية . فلما انصرفت ولاية أحمد بن طولون عنهم تكشفت نفوسهم

غير متهيئة لعمل ، فاستسلموا لمن بعده ، وهكذا كان أمرهم مع كل طارق ورضخوا لكل حاكم ، ولو لم يكن خبيرا بسياسة الملك كالدولة الأخشيدية ، وصاروا لعبة فى يد الفاطميين الذين سنوا لهم سننا تعدت ضروب المحال كما هو معلوم .

سرى سوء الرأى فى تلك الأيام فى الأمة المصرية ، حتى عجزت فى ذلك الوقت عن إقامة نظامها فى خاصة نفسها ، ونظام أسرها فى ضرورة معاشها ومهنها ؛ فما الظن بها فى سياسة النوع الإنسانى ؟ وأنى لها بإمضاء الأحكام وإصلاح البلاد ، وحمل الناس على مصالحهم ، وما تعمهم به الفائدة فى المعاش والمعاملات ؟ نزلت مصر فى الأخلاق منزلة يظن الباحث فيها أنها محجوبة عن الحق ؛ لأنها وهنت وسهل ابتلاعها لضعفها عن النظر ، والتخلق بأدب الدين ، وأصبحت مركزا للقلاقل وتعكير الفكر ، وتمكنت أغلال الاستعباد فى أعناق أهلها ، حتى قبلوا المذاهب العدة التى قام بها أصحابها فيما بينهم ، وكانت من أكبر أسباب التفريق .

انظر إلى ما حكم به عليها ذلك الفاطمى (المعز لدين الله) على الغيب ، وهو فى أقصى المغرب من الضعف بسبب الانحطاط الذى كانت فيه باستطلاع لطيف : وهو مفارقة أدب الدين الذى تتفجر منه ينابيع النخوة ، وتنشأ عنه القوة العاملة .

قال المقريزى (رحمه الله) فى خططه ، عند ذكر الخلفاء الفاطميين : إن أم الأمراء (والمراد بها أم الخلفاء الفاطميين يعنى والدة المعز) وجهت من المغرب صبية لتباع بمصر مع وكيلها (وكأن ذلك كان على سبيل التحسس لمعرفة أخلاق البلاد والعباد) تعرضها بألف دينار ، فحضرت إليه فى بعض الأيام شابة على حمار ، وساومته الصبية بستمائة دينار ؛ فإذا هى

ابنة الأخشيد سلطان مصر ، بلغها خبر هذه الصبية فلما رأتها شغفتها حبا ، فاشترتها فعاد الوكيل إلى المعز وأخبره بما وقع ، فأحضر الشيوخ ، وأمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الأخشيد مع الصبية إلى آخره فقال المعز : انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم و بينها شىء ؛ فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك تخرج بنفسها ، وتشترى جارية تتمتع بها ، وما هذا إلا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم . فقالوا : السمع والطاعة ، ونهضوا وكان الفتح . ثم توالى عليها الخلفاء الفاطميون ، حتى كانت مدة الحاكم ، فوقع منه ما لم يكن لأحد فى حساب .

انظر لهذه الحادثة ، وسلط عليها قوة الفكر ، وتناولها ببسطوة العقل ، واستعمل فيها حذق أصحاب الاستنباط والاختبار — تعلم وتحقق أنه لا سبب لهذا الاختلال الذى نفث علينا سموم الدسائس ، وأثار فينا الفتن والوهن ، ومكن الأراجيف من العقول ، وفتح مجال الشر ، وأقام معترك المطامع ، وجعل البلاد مهبط البلاء — إلا مفارقة أدب الدين ، والذهاب فى أثر التمدين الوضعى المبنى على القواعد الجديدة التى لا رابطة لها ، ولا وصلة بينها و بين عفة الأديان . وفى هذا ذهاب الغيرة ، وضعف النهضة الشريفة الإنسانية . فإذا قيس حاضر على ماض ، فليعلم أن تمكن الأعداء من البلاد ، وضعف النفوس عن مقاومتهم — لم يكن له سبب إلا هذا ؛ لأن الإنسان لا يذود غيره عن حوضه بسلاحه إلا وهو عالم بشرف ما فى ذلك الحوض من مال ونفس وعرض . والخالى من الفضيلة والفضل معذور بالهجوم على ما لا يعلم والفرار من قرار الكمال ، حتى يحتجب عن الحق ؛ لأنه لا يدرى كيف يكون فى رق وصلاح حال ، ولا إلى أى طريق يذهب . فاللهم اهدنا سواء السبيل !

ألمعنا فى النبذة السياسية التى مضت إلى ما كان من حال مصر، وما جرى من دخول جوهر القائد بعسكر المعز لدين الله فيها بسبب الاختلال الذى ألم بأهلها ، وما كان من تأسيس الخلافة الفاطمية فى هذا القطر .

ومهما يكن أمر هذه الخلافة فى نظر كثير من المؤرخين ، وما تكلموا به من إثبات نسبهم ، أو نفيه عن أهل البيت كما سيأتى — فقد كان لخلفائها من الدولة والسلطان ما قاسموا به بنى العباس ممالك الإسلام ، بل كادوا يلجون عليهم مواطنهم ، ويزيلون من أمرهم . واستمرت دولتهم نحوا من سبعين ومائتى سنة ، فتحوا فيها البلاد ، واستخدموا العباد ، واختطوا مثل مدينة القاهرة المدينة الفخمة التى هى من وضع أول خلفائهم الخليفة (المعز لدين الله)، ولذلك فنحن ذاكروه من بين خلفاء هذه الخلافة الفاطمية ؛ لهذه العلقة ، ولما اتصف به أيضا من محاسن الخلال والخصال ، والحزم والعزم .

المعز لدين الله

هو المعز لدين الله أبو تميم معد بن المنصور بالله إسماعيل بن القائم بأمر الله أبى القاسم محمد بن المهدى أبى محمد عبيد الله العلوى الحسينى . ولد بالمهدية من إفريقية فى الحادى عشر من شهر رمضان سنة تسع عشرة وثلثمائة .

تولى المعز لدين الله الخلافة بالمغرب ، وكان ممن يهتف باسم مصر ، والاستيلاء عليها ، وله رسل تستطلع له خبرها كما قلنا ، وقد وافق ذلك موت كافور الإخشيدى ، صاحب مصر ؛ فاختلفت فيها القلوب ، ووقع الغلاء ، وتتابعت الشدائد ، وحصل الإدبار ، وعجز رجال الدولة عن إدارة الأمور ، واختلت حال الأقاليم المصرية و بلغه تفصيل هذه الأحوال السيئة ، وهو بإفريقية ، من تلك العيون التى كان أزكاها فى طلب خفياتها ، فسير المعز قائده الصقلى فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة فى جيش كثيف للاستيلاء عليها ، فلما بلغ من فيها من عسكر الإخشيد أمره ، واتصل خبر مسيره بهم — هربوا عنها جميعهم قبل وصوله ، فدخلها واستوطن رحابها آمنا مطمئنا ، واختط القاهرة بقصرها ، واستقدم المعز لدين الله من المغرب ، فقدمها فى شعبان ، وأقيمت له الدعوة فى الجامع العتيق فى جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلثمائة .

ابتدأت هـذه الدولة العلوية بإفريقية بدعوة أبى محمد عبيد الله أول من ولى منهم نحوا من سنة سبع وتسعين ومائتين ، ودخلت جيوشها (مصر) سنة ثمان وخمسين وثلثمائة . وانقرضت فيها سنة سبع وستين وخمسمائة على يد (صلاح الدين يوسف بن أيوب) ، فمدة ملكهم مصر مائتا سنة وتسع سنين . وقد اتسعت أكناف مملكة هذه الخلافة ، وأقيمت الدعوة لصاحبها بالمغرب ، ومصر ، والشام ، وبعض أعمال العراق ، وطالت ، وتطاولت حتى اتصلت بالمواطن المطهرة بمكة والمدينة ، فملكوا مقام إبرهيم (عليه السلام) ومصلاه وموطن الرسول (صلى الله عليه وسلم) ومدفنه ، وموقف الحجيج ، ومهبط الملائكة .

كان المعز عالما فاضلا ، جوادا حسن السيرة ، منصفا للرعية ، منصتا لطلباتها ، فلما قدم مصر ساس الأمور ، ودبر الأحوال ، ولم يأل جهدا فى الإصلاح فصلح حال مصر عما كانت عليه ، وزهت بالقاهرة ، وازينت بقصريه فيها ، وتجملت بما ترتب فيها من الدواوين والمصالح ، ومواضع السكنى اللائقة بالخلافة وعظمتها .

اتسع نطاق العمارة فى أيامه : فالقاهرة مقره تموج برجاله وعسكره ، وعليها سياج من جلال ، والفسطاط بعظمته محل تصدير وشحن الأرزاق والبضائع الصادرة والواردة ، ومحل سكنى الأعيان ، وأرباب الثروة ، ورجال العلوم والصنائع وكل ما يليق بحال هذه الحضارة والعمران .

دخل بلاد مصر سائح عظيم من بلاد الفرس ، يعرف بالناصرى خسرو ، وألف فى سفره رحلة سماها (سفر نامه) يقول فيها : إنه لو وصف ما فى مصر من آثار السعادة والثروة — لكذبه الفرس . وكيف يصف مدينة

قل أن يوجد لها فى عظمتها شبيه : لها خمسة أبواب كل باب آية فى ضخامته وفخامته وهندامه يعجز الحاسب عن تقويم نظامه . وأغلب البيوت والمنازل شاهقة متقنة الصنعة تشبه القلاع ، يتوهم الناظر إليها من حسن نظامها أنها مبنية بأحجار ثمينة . والمساجد والفنادق والحمامات والدكاكين تعد بالألوف المؤلفة اهـ .

والذى يرى بعينه الآثار الباقية يصدق تلك الأخبار الماضية ، والواقف على تنظيم قصر المعز ، وما كان فيه من الخزائن للجواهر والسلاح والكتب — يعلم مقدار ثروة الدولة ، وقوة هذه الخلافة ، ونفوذ بصر المعز ، وشدة إدراكه .

كان هذا القصر كعبة فضل ، يحج إليها القاصد ، والمعز فيه يأمر وينهى بين مظاهر قوة السيف برجاله وأمرائه ، ومعالم الفضل بشيوخه وعلمائه .

يطول بنا الكلام لو أردنا استقصاء رسوم الملك ، وأبهة الخلافة ، ولوازم القصر ، وملحقاته من الحلى والزينة ، والأمتعة والفرش والثياب ، والذخائر وحاج العسكر البرية والبحرية : من سلاح وبنود وخيام ، وما يتجمل به الخليفة وخواصه ، وسائر رجاله وأتباعه ، وما ينعم به من النفائس الجليلة والمهمات العظيمة البالغة فى العظم والكثرة حدا لا تبلغه العبارة ، وخزانة الكتب التى اشتملت على ألف ألف وستمائة ألف كتاب ، وفيها من غرائب الدهر ، وعجائب الزمان مالا يحصى : قال المقريزى : دخل هـذه المكتبة أحد السياح ، فرأى فيها مقطعا من الحرير الأزرق ، غريب الصنعة ، فيه صورة أقاليم الأرض وجبالها ، وبحارها ومدنها

وأنهارها ومساكنها ، وجميع المواطن المقدسة مبينة للناظر مكتوبة أسماء طرائقها ، ومدنها وجبالها ، وبلادها وأنهارها وبحارها بالذهب ، وغيرها بالفضة والحرير فقال : يكفيني من عجائبك هذا . ومن جنس هذه الأعجوبة — الخيمة التي فاقت جميع المضارب والخيام المسماة (بالمدورة) كانت تضرب في المحافل والرسميات ، تقام على عمود واحد ، ودائرتها خمسمائة ذراع وخرقها وحبالها وعدتها تحمل على مائة جمل ، وقد صور في رفرفها صورة كل حيوان في الأرض ؛ فالقارئ يجري الغائب من هذه النفائس على ما عرف ويقيسها على ما شهد ، فيتعرف ما كان عليه القوم من الرفاهية .

كان هؤلاء الخلفاء ولعين بعمارة المساجد ، وحسبك الأزهر الأزهر والمقام الأنور ، والمصلى الأطهر ، الذي جعله الله مجتلى العلم والتعليم ، وخصه بلطفه وكرمه أن يكون موضع الإرشاد لسنة نبيه الكريم ، ودينه القويم . هذا المسجد أول مسجد أسس بالقاهرة مأوى العلم والعلماء ، وموطن الفقه والفقهاء . وكل واحد من المشتغلين فيه له ما يكفيه من الرزق الجاري على قدره ومقداره . والتعليم فيه مباح بأنواعه . والأروقة تأوي إليها طلبة العلم الغرباء فلا يلحظه النظر إلا وهو معمور بتلاوة القرآن ودراسته ، وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم : كالفقه والحديث والتفسير والنحو ، ومجالس الوعظ ، فالداخل فيه يجد من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره . ثم لا تزال عمارته تزداد ، وشهرته تتعاظم حتى قصده الناس من الآفاق ، فترى فيه خلقا من جميع بلاد الإسلام ، تقصده لتعلم

العلوم الشرعية والعقلية والنقلية من دروسه الدائمة المتصدر لقراءتها جهابذة العلماء والمحدثين : ما بين مؤلف ومدرس . وفيه الألوف المؤلفة من (المجاورين) من الطوائف المختلفة : كأهل الحجاز ، واليمن ، والهند ، والسند ، والسودان ، وجاوة ، وبغداد ، والمغرب ، والشام ، والأتراك ، والأكراد وغيرهم من أهل مصر من جنوبيها وشماليها فهو أشهر بقعة بعد المساجد الثلاثة . ويا له من مدرسة كبيرة وبقعة نافعة ! يزول بها الجهل ، ويخلد فيها العلم وتتأدب بها النفوس ، وتتسع القرائح وتتنبه الفطن ، وتسمو الآداب وتظهر الأسرار ، ويكتسب الشرف ، ويعظم القدر ، لو كانت تلك الشموس والأقمار التي تشرق في أفقه غير محجوبة بسحب التقليد القديم ، خارجة عن مداراتها الأولى متطلعة إلى درجة إحياء المعارف والعلوم ، ورونقها في غير هذه البلاد غير ناظرة إليها نظر المستنكف ، آخذة من هذا الجديد بما حسن ولطف مما لا يمس عقيدة ولا يخالف دينا — إذن لأصبحت رحابه قبلة لكل طالب ، وكعبة لكل قاصد ، بل يكاد الإنسان يحلف غير حانث أن الأزهر وحده كاف لحاجة البلاد بجميع أوجهها ، فهو منبع العلوم ، وأقرب مورد يمكن أن يستق من معارفه القطر ويظهر لكل إنسان براعة هذه البلاد ولكن :

ما يشا ربك يفعل قادر ... جل عن كل مقال واعتراض
قد تجمعنا على غير هدى ... وتفرقنا على غير تراض
وتقارضنا شهادات التقى ... ثم صرنا لزوال وانقراض
واستعارت صحة أجسامنا ... واستعانت بمودات مراض

(عود) كان للساجد فى أيامهم رسوم وأحباس ، ولها ديوان مفرد ، وقضاة وعلماء تتفقد حالتها وهم أول من أقام الدرس بأجر . ثم فى مدة العزيز عمل الوزير ابن كلس مجلسا فى داره يحضره الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل وكان يقرأ فيه الفقه على مذهب الفاطمية .

كان لهم التفات غريب لملاحظة أمر المواسم والأعياد ، على طول السنة ولهم فيها البر والخير والصدقات والإحسان فى الأيام التى يعينونها والليالى التى يبينونها . ثم تطرق الخلل إلى سياستهم ، وكأنما كان ذلك لتعمقهم فى الرفض أو لإلحاد بعضهم (كالحاكم) ، فدفع ذلك فى دعوتهم وجاء الطعن فى منتسبهم متمما لذلك ، فتغيرت تلك الأحوال بالحوادث التى توالت فى أيامهم الأخيرة : تارة بالصلاح وتارة بالفساد ، إلى أن ألحت الحوادث ، وتوالت المحن ، فغيرت تلك الوجوه الحسان ، وأزالت معالم الحسن والإحسان ، وبدلت رونقها من الجمال ، واعتاضت عنها بالأطلال والدمن . ومن يتأمل مدة كل خليفة منهم وأعماله — يرأن همة أغلبهم كانت متجهة إلى اتساع دائرة العمارة واليسار ، وبسبب ذلك يصح للمؤرخ أن يعتبر القاهرة فى مدتهم مترقية جدا فى التجارة والصناعات والمعارف والعلوم التى لم تكن لها من قبل ، ولا حصلت لها من بعد ، والمبانى الضخمة المشاهدة التى لا تقوم إلا بالأموال الجمة ، والتقدم فى صناعتى البناء والتصوير ، كما تراه فيما بقى من ذلك من الأبواب : كزويلة ، والفتوح والنصر . ومن المساجد : كالحاكم ، والأنور . كل ذلك يدل على علو قدرهم ، ورفعة هممهم وسعتهم فى دائرة السخاء والكرم . وكذلك كانوا فى مراكبهم ومواكبهم واحتفالاتهم فى مواسمهم : مما لو أراد الإنسان معرفته يجده فى مظانه من كتب التاريخ .

ثم زالت دولتهم على يد آخر خلفائها العاضد بالحوادث التى وقعت ، وأدت إلى قدوم السلطان (صلاح الدين بن أيوب) إلى هذه البلاد ؛ لإطفاء الفتن التى دهمتها فأطفأها . وما عاد إلى البلاد الشامية حتى هاجمتها العساكر الصليبية فاضطر لقدومه لمحاربتها وكان ذلك . ثم وجد فى حال البلاد اختلالا لا يمكن إلا إذا سهر عليه الإنسان بالتدبير المقرون بالإصابة ، وحسن الرأى المعروف بالأصالة ، وكأن البلاد سئمت ما هى فيه من المصائب المتوالية ، فلم يلق فى نزع يد العاضد من الخلافة ، و إعادة الدعوة للعباسيين — أقل معارضة وممانعة ، ففعل وتولى حكم البلاد بنفسه .

وقد انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلام

تغيرت بتغير الدولة كل الأحوال ، حتى فى المأكل والمشرب وسبحان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

هذه الخلافة طعن فيها أغلب المؤرخين ، وتكلم الكثير [1] فى نسب القائمين بها وابتعادهم عن آل البيت (رضى الله تعالى عنهم) وادعوا أن أصلهم يهود (نعوذ بالله من هذه المقالة) ، حتى عمل فى أيام الإمام القادر العباسى محضرا يتضمن القدح فى هذا النسب ، وشهد فيه من شهد من أعيان العلويين خوفا وتقية ، وغيرهم مجاراة وتزلفا . وزعم الأمير عبد العزيز صاحب تاريخ إفريقية — أن أصحاب هذه الدعوة من بقايا اليهود الذين أسلموا فى صدر الإسلام نفاقا ، وما زالوا يتربصون الشر بجماعة المسلمين ، قصاصا لما وقع لأسلافهم من تسفيه أحلامهم ، فقامت جماعة منهم فى آخر خلافة الإمام على (رضى الله عنه) ، وأخذوا

(١) مثل شيخ النظار أبى بكر الباقلانى .

فى وضع الأحاديث الكاذبة ، وتشكيك ضعفاء العقول فى الدين ، وآخرون أرادوا استئصال الأمر بالقوة ومنهم هؤلاء .

والذى عليه أهل التحقيق أن نفى نسبهم عن نسب آل البيت كان بأحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس ؛ تزلفا إليهم (كما هى العادة من القدح فيمن ناصبهم تفننا فى الشمات بعدوهم) بعلماء السوء لما توافرت شيعتهم ، وانتشروا فى القاصية بدعوتهم . وما زالوا كذلك والخلفاء قانعون بهذا السب ؛ حتى قاسموهم الملك وشاطروهم السلطان ، وهذا مرض غريب ، وداء عجيب يصيب الكثير من الناس ، ويقع فى الأفراد كما يقع فى الدول ، فتراهم يقنعون بتصغير عدوهم وامتهانه ، وهم فى عماية عما يدبره لهم من المكايد ، ثم يزيد الحال ويتسع ، فتراهم يحسنون على الشاتم ، ويغدقون على الطاعن ، ويكادون يسجلون هذا البهرج الزائف الذى يريد أرباب الأغراض ، وسماسرة البغى والباطل ترويجه لهم ، وكله فرية وزعم . وتبلغ بهم السذاجة إلى أنهم يستشفون بهذا الباطل ، ويسكتون عما يقع فى ملكهم من النقص ، وفى سطوتهم من الابتزاز .

باد الكثير من دول الإسلام ، وانتقصت أطراف ممالك كثيرة بهذا السبب ، وهو تصغير الأعداء فى نظر أولياء الأمور ، والاستهانة بهم ، والتهويل الشديد باستعظام شوكة صاحب الدولة ، والتعظيم له حتى يظن بعض السذج منهم أن وجود عدوه فى دار الحياة إنما هو استبقاء منه عليه وكرامة وتحنن ، وإلا فحياته فى قبضة يده . ثم لا تمر عليهما الليالى وتدول الأيام حتى يصبح الأمر ذا بال ، وعدوه قد أفسد عليه حاله ، ويتحقق أنه كان

غارقا فى بحار الخديعة وأنه أصبح بين أمرين : إما خوض المنايا لهذا العدو العنيد ، أو التجاوز له عن الأرض التى ظهر بعصيانه عليها وليته يقنع .

بهذا ذهب ما ذهب من فتوح الأمويين ، وأملاك العباسيين ، وبلاد الدولة العثمانية وأراضيها من الروملى والأناضول وغيرهما .

(تنبيه)

إلى هنا انتهى الكلام على الخلافة فى المشرق ما بين الشام ، وبغداد ومصر . وسنبدأ بالكلام على الخلافة فى المغرب ، مبتدئين بخلافة عبد الرحمن الداخل :

عرف القراء مما كتبناه أنه لما نزل ببنى أمية ما نزل بالمشرق ، وغلبهم الدهر على أمرهم ، مثل غيرهم من ساسة الدول ، وسلاطين الزمان ، وقتل آخر خلفائهم مروان بن محمد بن مروان بن الحكم — طلب بنو أمية بطن الأرض بعد ظهرها ، والدهر حسود لمن يسود ، ولكل هبوب ركود . وكان ممن أفلت عبد الرحمن بن معاوية ، خرج من الشام سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، وظل سائرا فى إفريقية ، ينتقل من مكان إلى مكان حتى وصل الأندلس بعد ست سنوات ، ودخلها سنة ثمان وثلاثين ومائة وشيد فيها دولة أموية بجده واجتهاده الملازم لها التوفيق والسعود ، وأصبح رأس الدولة بعد ما كان فيه من قنوط الهارب ، ويأس المطلوب من عدوه القادر ، وارتقى فى المغرب إلى مقام جدد فيه ما طمسه الزمان لبنى مروان فى المشرق من الملك العظيم والسلطان العزيز ، وأحيا ما اندرس من معالم الخلافة ، وجدد مانسى من اسمها .

لذلك جعلنا اسمه الكريم مفتتح الخلافة الأموية بالأندلس بعد أن فرغنا من ذكر من يسر الله ذكر أسمائهم من خلفاء الدولة الإسلامية ببغداد .

عبد الرحمن بن معاوية

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (المعروف بالداخل) لقب بذلك ؛ لأنه أول داخل من ملوك بنى مروان إلى الأندلس ، وهو رأس الدولة الأموية الأندلسية . كان شجاعا هماما كريما حليما ذا حزم وعزم أصهب خفيف العارضين بوجهه خال طويل القامة نحيف الجسم .

كانت عزمات هذا الخليفة تجعل قومه يتحينون فيه ملكا ، ويرون فيه علاماته . آية من آيات الله تعالى — أن يقطع هذا الخليفة البر والبحر ، ويقيم ملكا أدبر ، ويركب من الأخطار ما يركب ، ويقصد الأندلس من أنأى ديار المشرق من غير عصابة ولا أنصار ، فيغلب أهلها على أمرهم ، ويتناول الملك من أيديهم بقوة شكيمة ، ومضاء عزم ، وينقاد له الأمر ، ويجرى على اختياره ثم يورثه عقبه . آية من آيات الله أنه مع هذا الملك الضخم الذى أبيح له ، والدولة المتسعة التى كان فيها — لا يسمى نفسه بأمير المؤمنين ؛ تأدبا مع الخلافة بمقر الإسلام ، ومنتدى العرب ، وتبقى هذه التسمية إلى الخليفة الثامن من بنى أمية بالأندلس ، حتى حدث من ضعف خلفاء بنى العباس ما حدث ، ووقعت غلبة الأعاجم . انظر إلى هذا الجد والاجتهاد ، وتأمل هذا الميل ، لارتباط كلمة الدين ، والرغبة فى عدم قطع دعوة آل العباس ، مما أصبحت فيه جماعة المسلمين من الانقطاع :

وتفرقوا شيعا فكل قبيلة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

أفلت هذا الخليفة ، وخلص إلى المغرب ، واجتمع بموالى المروانيين وأشياعهم ، وبثوا له دعوة ، ونشروا له ذكرا ، ووافق قدومه انكشاف يوسف بن عبد الرحمن الفهرى من عسكره (بسبب ما كان من الإحن بين اليمنية والمضرية) ولم يبق معه من الجيوش ما يلقى به الأمير عبد الرحمن ، فانهزم فى ظاهر قُرْطُبَة ، ثم لجأ إلى غَرْنَاطة فتبعه الأمير وناجزه الحرب ورغب فى الصلح ، فعقد له على أن يسكن قرطبة وكان ذلك . ثم أدرك الأمير عبد الرحمن بالأندلس عبد الملك بن عمر المروانى وكان بمصر ، فلما دخلت المسودة أرضها خرج يؤم الأندلس فى عشرة رجال من قومه مشهورين بالبأس والنجدة ، فلما وصلها عقد له الأمير عبد الرحمن على أُشْبِيلِيَة .

ثم نقض يوسف بن عبد الرحمن عهده الذى عاهد به ، ونكث وخرج فسير الأمير للقائه (عبد الملك بن عمر المروانى) المذكور . فلما تناجزا كانت الدائرة على يوسف ثم اغتاله أحد أصحابه وتقرب بقتله إلى الأمير ، واستقام الأمر واستقر بقرطبة وثبتت قدم الأمير عبد الرحمن فى الملك .

أسس هذا الأمير بمفرده الدولة التى بقيت زاهية إلى ما بعد المائة الرابعة . شاد فيها من معالم الدين والدنيا مالا يدرك لغيره . شاد فيها جامع قرطبة الذى أنفق فيه ثمانين ألف دينار ، ومات قبل تمامه ، وبنى مساجد أخرى وصير لبنى أمية ملكا ضخما ، له من العز السامى العماد ما بلغ غاية الآباد بالجد والاجتهاد ، وأقام لهم دولة متسعة كانت أنبل دول الإسلام وأشدها بأسا على العدو ، وبلغت من العز والنصر مالا مزيد عليه .

حارب (الأذفونش) و (البورتغال) ، وخاطب فارلو ملك الإفرنج ، وكان صعب المراس فما زال به حتى أوجبه إلى المداراة والموادعة بالسلم ، وجعل فى هذا الثغر القاصى (ثغر الأندلس) من حلية الملك — ما أرهف به سيف عزه بسلطانه ، وحنك أهله بالسيرة الملكية ، وأخذهم بالآداب السلطانية ، فأكسبهم المروءة وأقامهم على الطريقة المثلى ، ثم دون الدواوين ، وجنـد الأجناد ، وفرض الأعطية ، وعقد الألوية ، وأقام للملك آلة ، وللسلطان عدّة ، اعترف بعظمتها أكابر الملوك حتى حذروا جانبه وتحاموا حوزته . وما زال يستعمل الحذق فى معاملة الملوك الذين يجاورونه بالعنف مرة و باللطف أخرى ، حتى دانت له البلاد وانفرد بحكمها ، وظهر له ظاهرها وخافيها ، وأدركت أعداؤه ما هو عليه من عظيم القوّة مالا وحالا ، وعلمت أن لله رجالا .

رفعت الأمير عبد الرحمن قوة الفضيلة ، وصـدق الحس ، و بعـد الغور ، وسعة الإحاطة ، حتى إن مناظره الإمام أبا جعفر المنصـور ، كان يسميه (صقر قريش) وقد عرف له حقه وعدله بل آثره على نفسـه بهذه الكلمة الخالدة ، وليس لواصف أن يصفه فينصفه بعد قول هذا الإمام فيه : قال لجلسائه : لا تعجبوا لامتداد أمرنا مع طول مراسه وقوة أسبابه ، فالشأن فى أمر فتى قريش الأحوذى الفذ فى جميع شئونه ، بعد فقد أهله ونشبه ، وتسليه عن جميع ذلك ببعد مرقى همته ومضاء عزيمته ، حتى قذف نفسه فى لجج المهالك لابتناء مجده ، فاقتحم جزيرة شاسعة المحل نائية المطمع عصبية الجند ، ضرب بين جندها بعصا تفريقه ، وقمع بعضهم ببعض بقوّة حيلته ، واستمال قلوب رعيتها بحذق سياسته حتى انقاد له عصيهم ، وذل له أبيّهم ، فاستولى فيهـا على أريكته ، ملكا على ذلك الملك الواسع ، قاهرا

لأعدائه ، حاميا لذماره مانعا لحوزته ، خالطا الرغبة اليه بالرهبـة منه — إن ذلك لهو الفتى كل الفتى ، لا يكذب مادحه .

هذا هو السر فى قوة الفضائل التى تحلى الإنسان بالرجولية والصرامة والاجتراء ، فتجعله ممـدوحا على كل لسـان ، حتى على لسان أعدائه ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

أصبحت الخلافة الإسلامية بسببه خلافتين : خلافة أموية فى الأندلس وعباسية ببغداد . وكانت سيرة خلفاء الأندلس أحسن من سيرة غيرهم فى الجملة ، سار سيرة حسنة لم يلامسها روح الشقاق ، ولم تنزع فيها النفوس للخروج على السلطان . كان رحمه الله قسطاسا للعدل ، يقعد للعامة يسمع منهم ، وينظر بنفسه فيما بينهم ، فيصل بالضعيف إلى رفع ظلامته دون مشقة ، و يردع الظالم عن بغيه وعتوه . وكانت مدة ملكه ثلاثا وثلاثين سنة وأربعة أشهر ، قصرت عن بلوغ أمانيه التى كان يتمناها . نعم إنه غزا فيها بلاد الإفرنج ومن وراءهم ورجع بالظفر ، ولكن أين هـذا مما كان يريده من إعادة دولة مروان بالمشرق ، كما كانت فى أبهتها وسطوتها قبل الخلافة العباسية .

استقر بقرطبة ، وهو الذى أدار عليها السور ، وأقام بها المبانى الضخمة فأصبحت موضع العجب بآياتها الباهرة فى الصناعة والأعمـال العجيبة ، يحج إليها السـياح من كل جانب ، لا يرفعون نظرهم لشىء من عجائبها ، إلا رُدّ إليهـم طرفهم مبتئسا ، يعييهم أثرها عن حذو تمثالهـا بتمثال ، و يعجزهم عن أن يحدوه بمثال .

ألا فلتعجب جماعة المسلمين بمثل هذا الأمير ، وتفتخر به فخرها بعمل من لا يساويه من أهل تلك الملل الأخرى ؛ فإن فى أفعاله جميع الضروب والأشكال التى تقصد فى المنافع كسعادة الأمم ، وتربيتها ، وإقامة الدول وحفظها من الانحلال . ولو أن رجلا اتصل بدار ، وهو من غير أهلها ، وقدر على أن يملكها منهم ، وأن يستخدمهم لذاته ، ثم ينظر فى وجوه سعادتهم ، فيدنيهم منها ويسهل لهم أبواب الخير ، حتى يعيش معهم ، ويعيشوا معه فى أرغد عيش — لعد ذلك عملا عظيما ، ودهاء كبيرا ، فكيف بمن يفعل ذلك بإقليم حشوه قوم جلاد شداد ، وقد أحاطت به دول فى غاية ما يكون من القوة والقدرة . اللهم إن هذا من أعجب العجب .

يدهش الإنسان سمو هذه الغايات الشريفة التى مهما طوتها الأيام وأخذت من زينتها ، لا تزال محلا للناظرة ، وموضعا للباهاة ، تبدى زينتها وتباهى بنفسها حتى يذعن لها العدو المعاند والمنكر الجاحد . ثم يدهش الإنسان من تلك الحوادث التى طرأت على هذه المدنية العظيمة حتى أحالتها إلى همجية ، بل أبادتها من يد أهلها .

كل هذا إنما نشأ من عدم رعاية خلفاء الإسلام لحفظ آثار بعضهم بعضا وأنهم لا ينظرون لها باعتبار أنها من عملهم ، بل يفرحون بزوالها ، وحلول الخراب فيها ؛ ليُنسى الناس بذلك أسماء المشيدين لها ، كأنما أولئك كانوا من أشد أعدائهم ، أما بغير هذا فمحال أن تذهب آثار الإسلام من وجه الأرض ، وبخاصة ما كان منها فى هذه الأقطار ، مما اتحدت الألسنة على أبهته ، وضخامته وجلالته .

الحاكم أبو الأمة ، والكل عياله ، والعلم سلم الترقى الذى يعرف به الولد حق أبيه ، ويدفع الوالد لأداء حق ولده ، وهو طاهر اليد من نعمته التى أنعم الله بها عليه ، فتتقوى أركان المملكة ، ويعظم جسمها ، وتتناهى فى العمران بعظم ثروتها ، وتوفر أعدادها ، واتساع بلادها ، فتسعد بالصلاح والإصلاح ، ويغمد بسر العدل والإنصاف ذلك السيف الفتاح . فاللهم هيئ لنا الخير ، وافتح لنا أبوابه ، وأسبل علينا من فضلك وعنايتك ما ييسر لنا صعاب أمورنا ، واهدنا وأرشدنا إلى خير العمل حتى ندرك المعنى الذى به تتم الصالحات . آمين .

الحكم بن هشام

هو الحكم بن هشام بن عبد الرحمن ، ثالث من ملك الأندلس من الأمويين . تولى بعهد من أبيه هشام بن عبد الرحمن الداخل .

كان هشام والده ، يذهب بسيرته مذهب عمر بن عبد العزيز (رضى الله عنه) فكما أنه كان يبعث بقوم من ثقاته إلى الكور ، فيسألون عن سير عماله وأعمالهم ، ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه حيف أحدهم ، أوقع به ، وأسقطه وقاصه — كان متفقدا أيضا لحال أبنائه ، ومن يظن انتهاء أمر المسلمين إليهم من بعده . وهذه خلة من خلال عبد الرحمن الداخل ، ورثها أبناءه ، وعلمهم ترشيحهم وتثقيفهم على الأمر ، وبين لهم مزية السؤال عنهم ، وعدم إهمال تربيتهم وتثقيفهم وتدريبهم .

لذلك نشأ (الحكم) منشأ حسنا فكان فى معاليه صاعدا ، وفى مراقيه ساميا ، واستولى على شرف التأدب . فكم من مطالب لذواهب المجد والفخر أدركها ، ومغانم من عوائد الحمد والشكر تعودها .

تولى بعد موت أبيه هشام سنة ثمانين ومائة فاستكثر من المماليك ومن رباط الخيل ، وأعد ما استطاع من القوة ، فاستفحل ملكه ، وملأ مكانه ، واجتمع من بحضرته من أهل بيته وقواده ، ومواليه وغلمانه ، وجنده — على متابعته ومشايعته ، فباشر معهم الأمور ، ثم حدثت فتنة بينه و بين عميه ، اغتنمها العدو ، واعتدها فرصة ، وقصد بَرْشِلُونة فامتلكها ، وتأخرت عساكر المسلمين إلى ما دونها بسبب فتنة الأقارب (وكذلك يفعلون) .

ثم بعث الجند إلى بلاد الجلالقة ، وأثخن فيها فهرب عدوهم إلى المضايق فأدركه وفرق جمعه ، وظفر به ، وخرج إلى بلاد الإسلام ظافرا .

يقال عن هذا الأمير أنه كان فى صدر ولايته منهمكا فى لذاته ، فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة : مثل يحيى بن يحيى الليثى صاحب مالك وأحد رواة الموطأ ، وطالوت الفقيه وغيرهما ، وما زالوا به حتى اقتتلوا معه فى طاعة الله : العلماء فى ناحية والأمير فى ناحية . ثم انتهى الأمر بعد قتل وقتال ، وتغريب وتشريد .

هذه الحادثة شذت عن القياس فى محاربة الأمير لعين أعيان دولته وخيرة أنصار دعوته ، ولكن انظر لحال العلماء ، ومعاملتهم لأمرائهم ، وتقويم اعوجاجهم بالسيوف — تجد أن تلك موعظة ، يجب النظر إليها بعين الاعتبار ، وأمثولة تستحق أن تحفظ . اعتدل بعدها حال الأمير ، وازداد تخلقه بالأخلاق الحميدة ، واستمر على الطرائق الرشيدة ، وأوضح له الله السداد ، وأنار منهاجه ، وعرفه يمنه و بركته .

دخلت عليه سنة اثنتين وتسعين ومائة ، فجمع (لذريق بن فارلو) ملك الإفرنجة جموعه ، وأغار بها على بلاد المسلمين ، وسار إلى حصار طَرَسُونَة فبعث إليه الحكم بن عبد الرحمن بعسكره ، فهزمه بإذن الله ، وفتح الله على المسلمين ، وعاد ظافرا . ثم كثر عيث الإفرنجة وعبثهم فى ثغور الأندلس وحصونها و (الحكم) من طرف ، ورجاله من طرف آخر يثخنون فى القتل والقتال ، حتى عاد إلى قرطبة ظافرا .

ثم فى سنة ٢٠٠ بعث العساكر مع ابن مغيث إلى بلاد الفرنجة فأخذ عدة حصون ، وأقبل عليه ملك الجلالقة فى جموع عظيمة ، فالتقى الجيشان ، واقتتلوا أياما ، ونال المسلمون منهم أعظم النيل ، وقفل المسلمون ظافرين ظاهرين .

هو أول من جند الأجناد واتخذ العدة وكان فحل بنى أمية بالأندلس وأشدهم إقداما ونجدة : قال بعض المؤرخين : إنه كان يشبه أبا جعفر المنصور من خلفاء بنى العباس فى شدة الملك وتوطيده تمكين الدولة وتشييدها وقمع الأعداء، وكان يحب الخير و يعين عليه ويراعى صنعه و ينمى غرسه و يسبغ نعمته إذا أولاها ، و يتمم عارفته إذا أسداها : من ذلك فعله فى المجاعة الشديدة التى وقعت سنة سبع وتسعين ومائة التى أكثر فيها من مواساة أهل الحاجات والفقراء حتى سار بخبر خيراته الناس ودونها الرواة .

استمرت مدة ملكه ستا وعشرين سنة . قال غير واحد : إنه أول من جعل للملك بأرض الأندلس أبهة وشانا ، وهو أول من جمع الأسلحة والعدد، واستكثر من الخدم والحواشى والحشم ، وأعد رباط الخيل على بابه. وكانت الجياد التى على شاطئ النهر قبلى قصره ألفى فرس ، وكانت له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، وهو الذى وطأ الملك لعقبه بالأندلس .

ومن أعجب ما يروى عنه أن العباس الشاعر توجه إلى الأندلس ، فلما نزل وادى الحجارة سمع امرأة تقول : واغوثاه بك يا حكم لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا فأيمنا وأيتمنا . فسألها عن شانها فقالت : كنت مقبلة من البادية فى رفقة فخرجت علينا خيل عدو فقتلت وأسرت فصنع فى قصيدته التى أراد أن يلقاه بها أبياتا منها :

تململت فى وادى الحجارة مسئدا[1] أراعى نجوما ما يرون تغيرا
إليك أبا العاصى نضيت مطيتى تسير بهم ساريا ومهجرا
تدارك نساء العالمين بنصرة فإنك أحرى أن تغيث وتنصرا

(١) أساد الرجل السير أدأبه ، أو سار ليلة بدون تعريس .

فلما دخل عليه أنشده القصيدة ووصف له خوف الثغر واستصراخ المرأة باسمه ، فأنف ونادى فى الحين بالجهاد والاستعداد ، فخرج بعد ثلاث إلى وادى الحجارة[1] ومعه الشاعر، وسأل عن الخيل التى أغارت : من أى أرض للعدو كانت؟ فأعلم بذلك ، فغزا تلك الناحية وفتح حصونها وخربها ، وأحضر المرأة وجميع من أسر له أحد فى تلك البلاد وقال للعباس : سلها : هل أغاثها (الحكم) ؟ فقالت : والله وشفى الصدور وأنكى العدو وأغاث الملهوف فأغاثه الله وأعز نفره . فارتاح لقولها هذا .

مثل هذه النجدة الآن تعجز أوروبة بأجمعها عنها ، ولقد أعجزتها فعلا فى مسألة البُوَيْر فلم تنبس ببنت شفة وبح صوت الشيخ الرئيس كوجر من فرط النداء والاستصراخ . وما أنت بمسمع من فى القبور، قبور الشهوات والملاذ التى أنست الناس الفضيلة ومكارم الأخلاق، وصبحتهم لا يعرفون شيئا غير صيانة هياكلهم فى حصون الجبن ؛ حتى أصبح الصدق تقريعا ، والنصح والإخلاص تضييعا ، وكأنك لو نظرت لتاريخ أوربة والمشرق لا تجد غير ذلك : اندفاع إلى المنفعة والمغانم بغير نظر إلى شرف أو فضيلة .

إنا لو شئنا سرد الشواهد على أن مدنية أوروبة (قول لا عمل) — لاحتجنا إلى تأليف جديد ، ولكن الظن بالقراء أنهم يكتفون ببعض هذه الشواهد الظاهرة والأغراض السياسية الكاذبة مما لا يرى فى بلاد المسلمين أبدا ؛ لأنهم يجهلون التلفيق والتمويه فى الحقائق و إبرازها فى أثواب الزور المدبجة بألوان التمدين العصرى .

(١) بالأندلس .

عبد الرحمن بن الحكم

هو عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام الأموى . ويقال له عبد الرحمن الأوسط ؛ لتوسطه بين عبد الرحمن الأول والثالث .

ولد بِطَلَيْطَلَة سنة ١٧٦هـ، وتولى الخلافة سنة (٢٠٩ هـ) على أثر وفاة والده وعمره ثلاث وثلاثون سنة ، وولى الحكم ثلاثين سنة ، وتوفى سنة تسع وثلاثين ومائتين .

كان عبدالرحمن أسمر طويلا ، أقنى الأنف، عظيم اللحية، حازما قويا شجاعا ، جمع الله فيه ما بين لطف الأدباء والشعراء ، وفضل العلماء ، وشجاعة القواد ، ومهابة الحكماء ، فكان نادرة زمانه .

هذبه أبوه الحكم ، وعوده الجلوس على مراتب الملك والسلطان؛ لأنه استعان به فى مهمات أموره من المهام السلطانية التى تدخل تحت الخلافة ، ويشتمل عليه منصبها من أحوال الدنيا والدين، فأنفذه فى عظام الأمور ، وولاه قيادة الجند فى محاربة الفرنجة وتذليل البلاد الثائرة ، فأصبح له من النظر بأمور الجند والسلاح والحروب ، والبصر بسائر أمور الحماية ، والمطالبة بالحقوق — ما يكفى لمثل هذا المقام، وحسبك أنه هو الذى أخمد فتنة طليطلة فى اليوم المعروف (بيوم الحُفْرَة) المبسوط خبره فى مواضعه من كتب التاريخ .

تولى الملك بعزيمة الصلاح ومساعى النجاح ، وأولاه الله العز والنصر ، وخص أعداءه بالذل والقهر . فقد خرج عليه عم أبيه (عبد الله البلنسى) ينازعه الملك ، فلم يلبث أن مات ، وخلصت الحكومة له ، فصرف همه لإخماد الفتن داخل بلاده ، وردّ غزوات الفرنجة عنها ، ورفع معالم العلم فيها ، وكان له الفوز فى أكثر حروبه ، واستولى على برشلونة ، وغيرها من البلدان ، وطرد الفرنسيين من قَطَالِيَة .

وقف حائلا بين النوائب وبين مملكته دافعا عنها أحداث الزمان ، آسيا لكلومها ، جابرا لثلومها ، ففى عام توليته أخمد فتنة البيرة ، وأوقع بأهلها الوقعة المعروفة (بوقعة بَالِس) . وفى السنة التالية سير جيشا إلى بلاد (أَلْبَة) مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث فحاصرها ، وأحرق عدة حصون بها ، وغنم الغنائم ، وعاد بعد أن صالح أهلها على مال كثير .

وقعت هيبته فى قلوب ملوك الفرنجة ، ففاز فوزا عظيما ، وغنما بلادهم مرات . ووفق لإخماد الفتنة اليمنية والمضرية ببلاد مُرْسِيَة ، ودانت له . وافتتح برشلونة مرة ثانية بعد ما انتقضت عليه ، وهدم سورها . ثم فتح مدينة بَاجَة واستولى على مدينة طليطلة . ثم كانت له وقائع كثيرة ، مع الإسبان فى أطراف بلاده والفرنسيين ، وكان الفوز له فى معظمها مع الغنائم الكثيرة .

كانت فى أيامه غزوات النورمنديين[1] المعروفة فى تواريخ العرب (بغزوات المجوس أو ظهور المجوس) واختلف القوم فى تواريخ حدوثها، وفى تعداد غزواتها ، ومنهم من جعلها غزوتين . والأظهر أنها غزوات

(١) أهالى نورمنديا فى شمالى فرنسا وأصلهم من السويد .

متتابعة، لم تكن ذات شأن فى أول الأمر . ثم أقبل النورمنديون فى أوائل عام ٨٤٥ م . بجيش جرار فى سفنهم ، وعاثوا فى سواحل الأندلس ، ونهبوا (قادِس) ، وظفروا بالمسلمين، ثم ساروا إلى إشبيلية فى السنة التالية، فخرج إليهم أهلها ، وقاتلوهم فقتل الكثير من المسلمين وانهزموا ، وأكثر النورمنديون من النهب والسلب وعاثوا فى البلاد ، وعادوا إلى مراكبهم ، ثم خرجوا منها ، وحشد عبد الرحمن جيوشه من كل البلاد ، وكانت بين الفريقين حرب شديدة ، فاضطر النورمنديون إلى الرحيل عن إشبيلية ، ولكنهم ظلوا ينتقلون فى السواحل، ويعيثون سلبا ونهبا إلى أن تمكن عبد الرحمن بعد الجهد الجهيد والعناء الشديد من طردهم عن بلاده .

وصلت جيوشه إلى مدينة ليون ، ورموها بالمجانيق ، فهرب أهلها عنها ، وتركوها فغنم منها المسلمون غنائم كثيرة .

كانت الخلافة بالأندلس لا تشبه غيرها من خلافات المشرق ؛ لما يلزمها من شدة الحذر ، وطول السهر ، وقلة الراحة ، ودوام اليقظة؛ لأن غارة جيرانها من الأمم المباينة لها لا تنقطع ، ولأن المسلمين بينهم جسم غريب ، وكل فرد من هذه الشعوب ليس له هوى غير الانتقام منهم ، والتمكن من إعادة أرضهم وملكهم إليهم ، والحيطة عليه . وشغلهم أن يبقوا متكالبين على الطلب، ومنتهى آمالهم أن يعيدوها كما كانت، لا يغفلون عن ذلك أبدا ، وليسوا بصامتين فيحتاجوا إلى من ينطقهم ، ولا لاهين فيضطروا إلى من ينبههم ، بل متعرضين لذلك تعرض المستميت بعزم الواجد لا المتكلف ، ولا يزال حكامهم ينصحون به الناس على طول الأيام ، والناس غافلون .

هذه حال العدو المحارب، وأشد منها حال الصديق المخادع ، والرصيف المنافق، وهم الذين يرصدون مراصد الكيد للدولة من العمال؛ فقد انتقض عليه بعض عماله ، يدعون للخلفاء العباسيين ببغداد (ولو كانوا ببغداد لدعوا فيها للأمويين بالأندلس) فكان هؤلاء من طرف ، وحروب الإسبان من جهة أخرى ، حتى استقلت ولايتا (أراغوان) و (نوارة) عنه . ومع هذا فقد ترك ملكا قويا ، خلفه عليه ابنه (محمد) .

بلغ مرتبة تقطعت دونها أنفاس المنافسين ، وتضرمت أحشاء الحاسدين من الثأى الذى رأبه، والشعث الذى لمه ، والعدو الذى أرغمه ، فبعث إليه توفلس ملك القسطنطينية بهدية ، وطلب مواصلته ، ورغبه فى ملك سلفه بالمشرق[1] (تأمل هذا الحذق فى بذر بذور الشقاق ، وانظر سهام المكايد النافذة) وذكر له المأمون والمعتصم فى كتابه ، وعبر عنهما ، بأسماء أمهاتهما امتهانا ، فلاقت هذه الحالة من الأمير عبد الرحمن رجلا خبيرا حكيما، فدفعها بدهائه، وكافأه على هديته، وبعث إليه (يحيى الغزال) من كبار أهل الدولة ، وكان مشهورا فى الشعر والحكمة ، فأحكم بينهما وصلة الحب ، وارتفع لعبد الرحمن عنده ذكر وأى ذكر !

كان واسع الرزق فى كل شىء حتى فى ذراريه ، فقد مات عن ٤٥ من الذكور . وكان أديبا شاعرا عالما بالشريعة وغيرها من علوم الكلام ، بعيد الهمة . وهو أول من شاد القصور الجميلة والمتنزهات ومهد الطرق ، وأتى بالماء العذب إلى قرطبة من الجبال، وبنى المدارس ، وأسس ديار العلم ، وشاد الجوامع الكثيرة ، وبنيت فى أيامه الجوامع بكور الأندلس، وزاد فى جامع قرطبة ، ومات قبل أن يتمه فأتمه ابنه (محمد) .

(١) يعنى الخلافة الأموية بالشام التى ابتزها منهم العباسيون .

هو رابع ملوك الأمويين بالأندلس ، ولكنه أول من أقام أبهة الملك ، وكان محبا للعلماء والأدباء . جمع إليه ذوى الشهرة من شعراء العرب ، ودوى الفضل منهم . ويعترف الأوربيون أنه لم يكن فى زمانه دار ملك كدار ملكه أبهة ومجدا .

لعل عبد الرحمن هذا هو الذى نقل هيئة الحكومة إلى ما رمز إليه العلامة ابن خلدون فى مقدمته من غير أن ينسبه لأحد : قال فى كلامه على العمران البدوى : وأما دولة بنى أمية بالأندلس فألفوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافا ، وأفردوا لكل صنف وزيرا ، فجعلوا لحسبان المال وزيرا ، وللمراسلات وزيرا ، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيرا ، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيرا ، وجعل لهم بيت يجلون فيه على فرش منضدة لهم ، وينفذون أمر السلطان ، كل فيما جعل له الخ ، وهذا شىء أشبه بوزراء الحكومات الآن (ولعله مبتدعه) .

دخلت فى مدته صناعة الغناء من المشرق إلى الأندلس ، بوفود زرياب المغنى مولى المهدى من العراق إليها ، وهو تلميذ إبرهيم الموصلى ، فركب عبد الرحمن بنفسه إليه وتلقاه وأكرمه ، وأقام عنده بخير حال ، وأورث صناعته أهل المغرب وخلف أولادا ، وخلفه فى صناعته وحظوته كبيرهم عبد الرحمن ، ثم انقطع هذا إلى أزمان الطوائف .

وغير خاف أن هذه الصناعة هى آخر ما يحصل فى العمران من الصناعات ؛ لأنها كمالية . وهى أيضا أول ما ينقطع من العمران عند اختلاله ، وتراجعه أو تبدله ، ولا مشاحة فى أن هذا الفن من أجل الفنون ؛ لأنه ينفع المرضى ، كما ينفع الأصحاء . وقد كشفت العلوم الجديدة والتمدين الحديث

لزومه لكيان الوجود والحياة لزوم الماء والهواء وأن عليه مدار صحة الأمم ؛ لأن الفراغ واللذة بعد الكد والعمل لابد منهما ، وإلا فالمنبت هالك لا محالة .

وهو أول من أحدث النقش فى الخاتم بمزيد عن الاسم : فكان نقش خاتمه (عبد الرحمن لقضاء الله راض) ، وكانت أيامه أيام رغد وهناءة على ما فيها من الحروب ، بل الفتن الداخلية : وذلك لأنه كان يتلقاها بفكر ورأى ، وثبات جأش وحزم ، فلا تلبث الفتنة أن تزول ؛ ولذلك بلغ فى ملكه اتساعا عظيما ، وجبى مالا كثيرا ، وكان طروبا ، فخورا بمجده وأعماله اللائقة : فمن شعره فى ذلك :

فكم قد تخطيت من سبسب ولاقيت بعد دروب دروبا

ألاقى بوجهى سموم الهجير إذا كاد منه الحصى أن يذوبا

وكان مولعا بالسماع ، محبا له ، وهو أول لذاته . شغله عن كثير من المنكرات التى تعظم عليه بتبعتها والحمد لله .

لاشك أن القارئ ينسب كل ما لهذا الخليفة من الأعمال الخيرية إلى قوة الدين ، وشدة العزيمة ، والبحث عن عواقب الأمور ، وفرط الروية والتبصر ، وأساس ذلك كله العلم والعمل اللذان فتح له بابهما أبوه .

باشر فى عهد أبيه الملك ، فدربه فيه تدريب الحكيم ؛ فمذ وليه لم يتعثر فى ذيله الطويل ، ولم يتحمل أبوه مسئولية الخلافة حيا وميتا ، بل أبرزه للورى جلدا لايفرى أحد فريه .

صرف بصره إلى وطنه، وعرف مايجب له عليه، فحدق النظر، واستطلع الخفايا واستجلى الدقائق، فتجلت له دعامة وجوده وروح حياته، فرأى أنه بالفضائل يحيا، وبالرذائل يموت ويفنى، وباختيار الأمناء الأكفاء من الرجال يعز ويغنى، وبالدخلاء يذل ويشق.

تجلى له هذا المظهر، فشعر بأن له شأنا عظيما فى الوجود، وأحس بقواه المقدسة التى أودعها فيه مدبر الكون، فاندفع إلى طلب الفضيلة الحقيقية والكمال الصحيح الذى هو له أهل، فأصبح من أحسن الناس سيرة:

وإنما المرء حديث بعده فكن حديثا حسنا لمن وعى

عبد الرحمن الناصر

هو عبد الرحمن الناصر لدين الله، ثامن ملوك الأندلس من الأمويين. ويعرف بعبد الرحمن الثالث. ولد فى سنة ٢٧٧ هـ، وتولى الحكومة سنة ٣٠٠ هـ، وتوفى سنة ٣٥٠ هـ

وجد الأندلس مضطربة بالمخالفين، مضطرمة بنيران المتغلبين إذ أن من تولى الأندلس بعد عبد الرحمن الأوسط: كمحمد، والمنذر، وعبدالله — لم تصافهم جيرانهم، ولم تهملهم أيامهم، فلم تطل مدتهم فى الملك. ولم تطل أيديهم على أعدائهم بالدمار والهلاك، فاشتغل فى إطفاء تلك النيران، واستنزال أهل العصيان مدة استوعبت نيفا وعشرين سنة من أيامه، حتى استقامت له الأندلس فى سائر جهاتها بعد استيطان البلاء، ونقد الرجاء، واشتعال نار النفاق، وضيق الآفاق، فإذا به بسط العدل المشهور، بالسيف المنصور، وحقن الدماء المسفوكة، وأمن السبل المخوفة، وأحرز الأموال المنتهبة، وحصن البلاد الخربة، وجمع بإمامته الكلمة بعد افتراقها، فهو الذى رفض الدعة، وهى محبوبة، وترك الرأفة وهى مطلوبة؛ لتلين له الأحوال بعد الشدة، وتكسر من شوكتها بعد الحدة، والحمد لله على آلائه.

ومن الغريب أنه كان فى عهد توليته شابا، وأعمامه وأعمام أبيه حاضرون فتصدى إليها، واجتازها دونهم، كأن الله هيأه وأعده لما أراده من الخير على يديه لهذه البلاد.

هو أول من لقب بألقاب الخلافة ، وتسمى بأمير المؤمنين ، وكان من قبله يخاطبون ، ويخطب لهم بالأمير (كما تقدم الكلام) وذلك عند ماتحقق أن أمر الخلافة بالمشرق قد ضعف ، واستبدت بالخلفاء مواليهم ، والتاث أمرهم على جماعة المسلمين ، وتطاولت أيدى الديلم لقتل الخلفاء (كما وقع للمقتدر من خادمه مؤنس) ، فظهر بمظهرها فى مجالس الحشد والحفلة ، ومواطن الأنس والعظمة ، مستكملا شعارها من الإكبار والإعظام ، والإجلال والإكرام .

مدت إليه أمم النصرانية المجاورة لمملكته من وراء الدروب المستحكمة يد الطاعة والإذعان ، خوفا على أنفسهم وممالكهم ، من مطوى أفكاره ، ومخبوء تدابيره السديدة ، وآرائه المفيدة ، فصفا لهم إذ صافوه ، وأمنهم إذ سالموه تحرزا من الوقوع فى أشراكه ، وأوفدوا عليه من رسلهم وهداياهم من رومة والقسطنطينية فى سبيل المهادنة والتزلف ، والسلم والعمل على مرضاته ، ووصل إلى سدته الملوك المتاخمون لبلاد المسلمين بجهات قشتالة وبنبلون وما ينسب إليها من الثغور ، فكانوا يقبلون يده ، ويلتمسون رضاه ، ويحتقبون جوائزه ، ويمتطون مراكبه ، وكل وفد من الوفود يحتفل فى لقياه بالعسكر والقواد ، وأصحاب الشرطة ، وطبقات أهل الخدمة : كالموالى والحشم بما يناسب هول المقام وأبهة الخلافة ، ثم تقام لذلك الاحتفالات الشائقة ، وتتلى فيها الخطب الرائقة بما يدل على فخامة جاه الدولة ، وبيان مايخطبه غيرها من مودتها ، ثم يغدق على أولئك الوفود العطايا ، فيخرجون من الحضرة ، ويرحلون عن البلاد وقد اشتد عجبهم ، وطال تحدثهم بما رأوه من قدرة السلطان ، وعظمة الملك ، مما هو مبين فى مواضعه .

سما إلى ملك العدو فتناول سبتة ، ونقل الفرضة من أيدى أهلها وأطاعه بنو إدريس أمراء العدوة ، وملوك زناتة والبربر ، وفتح طليطلة ، وقرمونية ، وإشبيلية ، وكثيرا من البلاد العاصية ، والنواحى المستقلة .

كانت أيامه أيام جهد وعناء بما لقى من عنت الخوارج ، وتمرد العصاة وطمع ملوك الأطراف من المسلمين ، وقتال أمراء النصارى فى أستوريا ، ونوراه ، ومحاربة الفاطميين فى إفريقية ، بعد ظفرهم بالملوك الأدارسة ، وإيغال جنوده فى السودان المصرى ، ومع ذلك فقد خرج ظافرا من معظم تلك الحروب ، ودوخ البلاد ، وأخمد الفتن وظفر بالمنتقضين عليه .

انظر لما شيده من الآثار ، وأقامه من علائم المجد ، مع هذه البلايا والمصائب الداخلية ، والمحن والفتن الخارجية ، الملتفة حول كرسى خلافته ، لايكاد يلتفت إلى واحدة منها إلا استصرخته أخرى .

يده بيضاء على العلم والصناعة والتجارة ، فازدادت بذلك شهرته ومكانته : فهو الذى أنشأ المبانى العظيمة ، وشيد المساجد والجوامع ، والمدارس الفخمة : ومن أشهر هذه الأعمال الخطيرة مدرسة الطب ، وهى أول مدرسة أنشئت فى أوروبة بإجماع المؤرخين ، والمكتبة الشهيرة بغرناطة ، وهى أجل مكتبة كانت فى عهدها على ظهر الأرض أودعها ستمائة ألف مجلد ، والأسطول البحرى الذى غزا به إفريقية .

شيد مدينة الزهراء ، وكأنما حاطها بشعار التعظيم ، وألبسها رداء التكريم ، وناهيك ببلدة استدعى لإقامتها وبناء قصره (دار الروضة) فيها عرفاء البنائين والمهندسين ، من كل جهة ، فوفدوا عليه ، حتى من بغداد

والقسطنطينية ، وأقيمت على ٤٣٠٠ عمود من المرمر الخالص ، وصرف فى بنائها ٧,٥٠٠,٠٠٠ دينار واستغرق العمل فيها خمس سنين .

جلبوا إليها الماء من مستقره فى الجبال لسقاية المدينة ولوازم قصره وقصور خلفائه ، وأنفقوا له تلك المبانى ، وأعظموها فى نظر كل إنسان ، ففاقت لعلو درجتها ما تقدمها من الآثار . جمعت عجائب البناء، وغرائب الأشياء، فحدائق القصور التى شيدها كلها ميدان اعتبار واختبار ، كانت متنزها للإنسان ، ومرتعا للحيوان ، ومسارح للطيور ، ثم أقام دار الصناعة وجمع فيها من آلات السلاح والحرب ما لا يوصف، وأحيا بها ميت الأعمال الصناعية ، ثم جلب إليها ما قدر عليه من الخارج أيضا : كصناعة العاج والآبنوس والصفر ومواد التلبيس ، والترصيع ، والتطعيم بالفضة والذهب التى لا تزال آثارها باقية للآن، فى تعاريج أبواب القصر . والمدينة جالبة للحسرات على مواضى هذه الأيام :

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها ... من بعدهم فبألسن البنيان

إن البناء إذا تعاظم قدره ... أضحى يدل على عظيم الشان

ذكر جماعة المؤرخين سببا لطيفا لبناء هذه المدينة (الزَّهْرَاء) قالوا : إن الناصر ماتت له سرية وتركت مالا كثيرا، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين ، وطلب فى بلاد الفرنجة أسيرا فلم يجد، فشكر الله على ذلك وبنى هذه المدينة . فلله هذا الفكر السامى الذى صير ماله بين أن يجلب به على الأمة الشرف العظيم أو يقيم لها به الأثر الخالد .

ما كان أحوج هذا الملك العظيم إلى السلامة التامة ، من جميع وجوهها ؛ ليكون متساوى الفخار ، بين سره وجهره ، وظاهره وباطنه، ولكن أين تذهب خيانة الخونة الذين ليس لهم شغل إلا طمس المعالم ، ودروس المآثر للأغراض الذاتية ، فيهتكون ما يحق أن يصان من حرمة الملك ، ويخرقون ما يجب أن يحفظ من هيبة السلطان ، فهم الساهرون إذا رقد الناس ، المستيقظون إذا ناموا ؛ ليشنوا أنكر الغارات على الحاكم ، ويقيموا أقبح العثرات فى وجه الخليفة ؛ ليقعدوه عما هو فيه من نصرة الدين والمسلمين .

كان الخليفة عبد الرحمن كثير الجهاد والغزو بنفسه ، فيسير إلى دار الحرب ؛ ليثخن فى العدو حتى يدعوه للطاعة، لا شغل له إلا فتح الحصون وامتلاك البلاد والنواحى ، وإقامة ميزان عدله فيها .

كبر على الخونة والمردة أن يطأ عساكر المسلمين من بلاد الفرنجة ، ما لم تطأه قبل فى أيام أسلافه . وحدث أنه كان للخليفة عبد الرحمن وزير اسمه (أحمد) نقم عليه أمرا ، واتهمه بخيانة فقتله . وكان لهذا الوزير أخ يدعى أمين بن إسحق من بنى إسحق أمراء الأندلس المروانيين (عمال الأندلس فى عهد بنى أمية وبنى مروان) فقد إسحق على الخليفة ، وعصى فى مدينة (شَنْتَرِين) سنة ٣٢٥ هـ ، وأحدث بها ثورة عظيمة .ثم التجأ إلى (رادمير) ملك الجلالقة ودله على عورات المسلمين وكانت بينهم الواقعة المشهورة بواقعة (الخَنْدَق) ذهب فيها من عسكر المسلمين خمسون ألفا أو يزيدون

بخيانة هذا المارق . وأعجب من ذلك أنه استأمن إلى الخليفة عبد الرحمن بعد أن تخلص من (رادمير) ، ووسعه حلمه وكرمه ، وقبله أحسن قبول .

بعد هذا الحادث قعد الخليفة عبد الرحمن عن الغزو بنفسه ، وصار يردد الصوائف [1] فى كل سنة ، ثم جهز عسكرا مع عدة من قواده ، إلى الجلالقة وكان له عدة حروب ، هلك فيها من الجلالقة خلق كثير .

انظر (لولا هذه العثرة) كيف يكون ملك الأندلس ، مع خليفة مثل هذا ، جمع أشتات الفضائل ، حيث أعطى القوتين العلمية والحربية ، ورفع منار العلوم والفنون ، وأدخل فى الأندلس مفاخر كل جهة ، وزينة كل بلد ، وانقاد له المغرب الأقصى ، وحث الناس على الأدب الدينى ، فانغمسوا فيه فترقت نفوسهم ، وسمت إلى مراقى الفلاح ، ونشرت التربية القومية بتعميم العلم والتهذيب بغير تقصير من العلماء الذين هم روح الأمم وحياتها فبعث فى الأمة خلقا جديدا .

(لطيفة له) أقصها عليك ؛ لتعلم منها قدر احترامه للعلماء ، وقدر إعظام العلماء أنفسهم فى أيامه ؛ لما ذاقوه من لذة العلم ، وأحسوا به من شرفه : اشتاق مرة للفقيه الإمام أبى إبراهيم ، فطلبه ، وكان بالمسجد المنسوب لأبى عثمان ، يسمع طلبته الحديث الشريف ، فبعث إليه الخليفة خادما يدعوه إليه ، فلما جاءه و بلغه رسالة مولاه قال له : السمع والطاعة ولا عجلة . ارجع إلى أمير المؤمنين ، واذكر له عنى أنك وجدتنى فى بيت من بيوت الله مع طلاب العلم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الصوائف جمع صائفة وهى الجند يغزون صيفا لقلة الثلج والبرد .

يقيدونه عنى . وليس يمكننى ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم فى رضاء الله وطاعته ، فإذا انقضى مشيت إليه ، إن شاء الله . فمضى الخادم ولم يك إلا ريثما أدى جوابه وعاد يقول : أنهيت إلى أمير المؤمنين رسالتك . فقال : جزاك الله خيرا عن الدين ، وعن أمير المؤمنين ، وجماعة المسلمين . و إذا أنت أوعيت فامض إليه . وكان ذلك .

فحبذ الحاكم والعالم . هؤلاء الرؤساء الصادقون المفلحون ، الذين زينوا وجه الدين ، وانصرفوا عن الفخفخة الباطلة إلى الصراط المستقيم .

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما

فليت علماءنا لهذا السر يفقهون ، و بهذا القليل يتعظون .

تهذبت فى أيامه الأمة ، بجمع ما يؤثر عن أهل الأندلس : من نوادرهم وحكاياتهم فى العدل ، والوفاء ، وحسن الاعتذار ، والقيام بحق الإخاء ، وعلو الهمة فى العلم والدنيا ، والذكاء ، واستنباط العلوم ، واستخراجها ، وحب العلم ، واللطف ، ورقة الأخلاق ، والقوة والشجاعة ، والملح ، وأجوبة الملوك ، والظرف ، والبلاغة ، وعدم احتمال الضيم والذل ، والأنفة ، والجود والفضل ، وسرعة البديهة ، والعفو ، وغير ذلك من الخصال الحميدة التى تدخل تحت عنوان مكارم الأخلاق جميعها . نما ذلك فى مدته : فهو إما باذره أو غارسه ، أو منميه أو مستثمره ، رحمه الله .

مضت أيام هذا الخليفة على الأندلس ، وكأنما هى خيال حالم ، أو حديث نائم ، تولاها ولم يكن فى بيت المال ما يسد شيئا من نفقات

الجنـد وغيرها ، ثم توفى فترك من الأموال المدخرة شيئا عظيما فضلا عن السلطان الكبير ، والمجد الباذخ ، حتى لقبه الفرنجة بالكبير والعظيم .

عمر مملكته بالعدل والإحسان ، فنمت البركة فيها ، وانفسحت نفوس الرعايا للسعى والاكتساب ، وابتعـد عن الظلامات المفسدة للعمران من تكليفهم بالأعمال ، وتسخيرهم بغير حق ، أو أخذ ما بأيديهم بأبخس الأثمـان ، فقامت الدولة وعظم عمرانها ؛ لأمان النـاس على أموالهم ، وحرمهم ، ودمائهم ، وأسرارهم ، وأعراضهم .

كانت الأندلس فى زمانه زاهية بالمعارف والعلوم ، زاهرة بالثروة والغنى ، يعجب الذى يقابلها بحالها اليوم ؛ فأين كثرة الصناعة والتجارة ، والمعامل الحريرية والمصانع الغريبـة ، ومشاغل التطريز والوشى والنسج ؛ ومع هـذا الكمال الذى لا يفضله إلا الكمال الإلهى فقد وجد بعـد وفاته ورقة مكتوبة بخط يده ، يعدّد بها أيام السرور التى صفت له مدة حياته ، فإذا بهـا أربعة عشر يوما .

نقب الكثير من طلاب الأخبار على هـذا الأثر ، فما عثروا عليه وجال فى فهم الكثير منهم تأويل ذلك أو استنباطه ، فذهبوا أيضا مذاهب شتى . والذى يدل على الخبر (إن صح) أن تلك الأيام التى عدها هى أوقات فراغه من أشغال الملك ؛ لأن الملك بنى على المشاغل ، وهى لا تنتهى ، فإذا تم للملك ما يريد ، وأمكنه أن يرصد لنفسه وقتـا يرى نفسه فيـه خاليا عن حاجات المنصب الذى أقامه الله فيه — فتلك سعادة ما فوقها سعادة . وقد قال قوم غير ذلك ، وكثر القول حتى ألف بعض الأجانب رسالة فى تلك الأيام ، ذهب فيها مذهب القصص ، فأضعف هذا التخمين ذلك اليقين ، والله أعلم .

وخير ما فى المسألة أن ينظر العاقل لهذه الدنيا ، وعدم صفائها ، وبخلها بكمال الأحوال لأوليائها . هذا الخليفة الناصر ملكها خمسين سنة ، وسبعة أشهر ، وثلاثة أيام ، ولم تصف له إلا أربعة عشر يوما . فسبحان ذى العزة القائمة ، والمملكة الدائمة ، لا إله إلا هو . ثم يستكثر فى أعمـاله من كل خير وبر ؛ فما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

الحكم المستنصر بالله

هو الحكم المستنصر بالله ابن الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وولى عهده من بعده . اعتلى سرير الملك يوم وفاة أبيه ، وقام بأعبائه أتم قيام ، وأنفذ الكتب إلى الآفاق ، بتمام الأمر له ، ودعا الناس إلى بيعته ، واستقبل من يومه النظر فى تمهيد سلطانه ، وتثقيف مملكته ، وضبط قصوره ، وترتيب أجناده . وهو أول ما أخذ البيعة على أهل القصر ، ثم على إخوته (وكانوا يومئذ ثمانية) فوافى جميعهم وجلس ، وجلس الناس للبيعة طبقة طبقة ، كما هو مفصل فى مواضعه فلما تمت أذن للناس بالانفضاض ، ثم أخذ هو وإخوته فى تشييع جنازة الناصر من الزهراء إلى قصر قرطبة للدفن هناك فى تربة الخلفاء .

وفدت إليه الوفود للبيعة والتماس المطالب ، وقدمت من أقاصى البلاد ، فجرى على رسم أبيه الخليفة عبد الرحمن الناصر (رضى الله عنه) فى سلوك سبيل القصد ، واتباع طريق الرشد ، واحتذاء حسن الأثر ؛ حتى قالوا : إن الأندلس لم تفقد إلا شخصه .

استخلف على عمله أهل الفهم والمعرفة ، وذوى الدين والورع والدعة ، والفقهاء المشهورين بالغناء والكفاية ، والعلماء الجامعين للرواية والدراية ، حتى ظهر فى عيون الأعداء والأصدقاء بمظهر الكرامة والاحترام .

أهدى للحكم فى أوائل ولايته هدية ، جمعت أنفر الآثار العظيمة ، والنعم الزائدة : فمن مماليك يشجى بهم حلق العدو المناوئ ، والخصم المنازل ، والسيوف والرماح ، والتروس والقلانس الهندية ، والدروع والخوذ المختلفة الأجناس ، فكان لذلك مفتخر جليل ، ومحتفل جميل ، تضاعف به اغتباط قوة حرمة الملك ، واستطال به عماده على جميع المملكة .

غزا بنفسه لأول وفاة الخليفة الناصر جيوش الجلالقة الذين طمعوا فى الثغور ، واقتحم بلد (فردنند) وفتح (استبين) عنوة ، فبادروا إلى عقد السلم معه ، وانقبضوا عما كانوا فيه ، ثم أغزى غالبا مولاه (جِلِّيقِيَّة) وسار إلى مدينة سالم لدخول دار الحرب ، فجمع له الجلالقة ولقيهم ، فهزمهم ، ووطئ العساكر بلد (فردنند) وغزا شانجة بن رادمير وقد ساعده ملك (الجلالقة) فهزمهما ، وقصد بلاد برشلونة و بلاد القومس ، وعظمت فتوحاته ، وظهرت همة قواده ، ومرابطى ثغوره فى كل ناحية ، وكان من أعظمها فتح (قُلُمْرِيَة وقطوبية) .

ثم دخلت سنة ٣٥٤ هـ فابتنى حصن (عرماج) وظهرت فى هذه السنة مراكب المجوس فى (الإطلانطيق) ، وأفسدوا (لِشْبُونَة)[1] فناشبهم أهلها القتال ، فرجعوا إلى مراكبهم ، وأمر الحاكم القواد ، فخرجوا لحفظ السواحل ، وأمر قائد البحر بتعجيل حركة الأسطول ، ونال منهم من كل جهة من السواحل .

---

(١) قاعدة مملكة البورتغال الآن .

تم له ما أراد مع ملوك البشكنس وغيرهم ، وعاهد (لذريق) ووفدت عليه أمه بهدايا ملكية عظيمة ، ووصلته ، ووصلها ، وحملها أحسن محمل ، وأجزل عطاءها .

أوطأ عساكره أرض العدوة من المغرب الأقصى والأوسط ، وتلقى دعوته ملوك زَنَاتَه من مفراوة ومكناسة ، فبثوها فى أعمالهم ، وخطبوا بها على منابرهم ، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ، ووفد عليه من بنى الحرز وبنى العافية ، فأجزل صلتهم ، وأكرم وفادتهم ، وأحسن منصرفهم ، واستنزل بنى إدريس من ملكهم بالعدوة فى ناحية الريف ، وأجلاهم إلى الإسكندرية .

أما خلاله الشخصية فقد كان آية فى الفضيلة ، سمع من أجلاء وقته ، وأجاز له ثابت بن قاسم ، وكتب عن خلق كثير . وكان محبا للعلوم ، مكرما لأهلها ، جماعا للآثار الشريفة ، والأسفار الكريمة ، والكتب القيمة على اختلاف أنواعها ، فسبق من تقدّمه وجمع ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله ، فأقام للعلم سوقا ، وجدد للعلماء شوقا ، وظهر بهذا المظهر ، فجلبت إليه بضائع الفضل من كل قطر ، وحسبك بخزانة جمعت من الأسفار ما اقتضى لاستيفاء فهرسها أربعة وأربعين جزءا . جمع مقدارا ضاقت خزائنه عنه ، وكان ذا غرام بها ، وقد آثر ذلك على كل لذائذ الملك وأغراض الملوك ، فاتسع علمه ، ودق نظره ، وجمت استفادته ، وكان فى المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب ثقة فيما ينقله . ومن أشد ما يتعجب منه (وقد اتفقت على روايته الرواة) — أنه قلما يوجد كتاب فى خزانته إلا وله فيه قراءة فى أى فن كان ، وكان عليه تخاريج بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده .

أتحفه أبوه (الخليفة الناصر) بأحسن ما يتحف به والد ولده ، فقرّبه من العلماء ، وقرب العلماء منه ، ومكنه من كل وافد على الأندلس من علماء المشرق ، فكانت نفسه متشبعة بروح العلم والأدب : وفد أبو على القالى صاحب كتاب الأمالى على الأندلس من بغداد ، فأكرم الناصر مثواه ، وأحسن منزلته ، وأعلى قدره ، واختصه بالحكم ، فأورث أبو على الأندلس علمه ، وأفاد الحكم بأحسن ماعنده .

قويت عند الحكم (رحمه الله) سجية حب العلم ، حتى كان يبعث بالتجار إلى الأقطار ، ومعهم الأموال لشراء الكتب ، واستجلاب المصنفات من الأقاليم والنواحى ، باذلا فيها ما أمكن من الأموال ، مما لا ينفقه غيره ، حتى جلب للأندلس ما لم يعهده علماؤها . هذا كتاب الأغانى بعث فيه لأبى الفرج الأصفهانى مصنفه بألف دينار من الذهب العين ، فبعث إليه بنسخته ، قبل أن يخرجه إلى العراق . وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الأبهرى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم .

جمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ ، والمهرة فى الضبط ، والإجادة فى التجليد ، فأوعى من ذلك كله ، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده ، ولم تزل بقصر قرطبة ، حتى أصابتها مصيبة البربر عند دخولهم إليها عنوة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يطيش لب الإنسان عند ما يجد خليفة مثل هذا ، استشعر الناس فى زمن خلافته بالمسرة والمعزة ، والقوة فى الدين ، وجماعة المسلمين ، وعلا به كعب أمرائهم ، وسمت نفوسهم بآدابه إلى كل عمل شريف ، وأفاضوا بالتحدث فيه ، وكان للخطباء والشعراء ميادين ومقامات ، يطول القول فى التحدث عنها — وسيرته مجهولة عند كثير من الناس ، وعند

ناشئة الشرق بأجمعهم . فإن سئلوا عن ملك عالم مثلا فأقرب ما يحدثونك به سيرة كارلوس الأعظم ، أو لويس الرابع عشر . نعم إنهما كانا فى نُصرة العلم وتشييد أركانه آيتين ، ولكنهما ليسا بمفخرة المسلم إن أراد الافتخار ، وأولى به أن يلم بخبر نفسه ودينه وملته ، وتاريخ مجده ، وحياة خلفاء الإسلام ؛ ففى ذلك من الخير الكثير ما يربو على ما علم ، ويزيد على ما حفظ فلا يكون مصداقا لقول الشاعر :

كتاركة بيضها بالعـــراء وملحفة بيض أخرى جناحا

يصح أن تكون هذه الخلافة خاتمة خلفاء الأندلس ، ذات الدولة العظيمة ، والثروة الوافرة ، والمجد الباذخ ؛ لأنه لما توفى الحكم (رحمه الله) فأول ما حدث أن قُتل المغيرة أخوه ، وهو المرشح للحكم ، وولى بعده هشام ابن الحكم ، وكان صغيرا سنه تسع سنين ؛ ليتم لابن عامر فى الدولة ما يريد كما سيجئ تفصيله إن شاء الله . ثم ولى المهدى محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ، وهو أول خلفاء الفتنة ثم انتهى الأمر بسقوط الدعوة للخلافة الأموية ، واستبدت ملوك الطوائف كما سيأتى :

كانت الدولة الأموية من أعظم الدول مكانا ، وأشرفها موقعا ، ظهرت فيها منافع كثيرة للحضارة والمدنية عامة ، وللأمة العربية خاصة لا يكاد السامع بها يصدق بزوالها ، كأنما عليها مسحة من بقاء ودوام : زراعة متقنة ، وصناعة رائجة . والمدارس تخرج حكماء وعلماء وقوادا ، وأبطالا شدادا ، وفلاسفة مرشدين ، وكتبة وحسبة من أحسن الكتاب المقربين ، وشعراء مصنفين ، وصناعا مهرة مبرزين ، فى فنون البناء والتصوير ، والنقش والتزيين ، لا تزال آثارهم تدل عليهم وتشهد بفضلهم ، وشهادة العدو المناوئ أعدل شاهد

ولكن ما الحيلة فى احتدام حروب النفوس الشريرة أو نزول بلاء سوء الأخلاق ؟ وانقراض الدول ، وانحطاطها بيد أهلها . يحق للسائل أن يسأل أين ذهبت هذه العظمة ؟ وكيف وهى هذا الركن العظيم ؟ وما ذلك الشىء الجسيم الذى أدى إلى هذا الاختلال السريع فى الخلافة الإسلامية فى المغرب ؟ والظاهر أن السبب فى ظهور روح الشقاق ، والخروج على السلطان من الأمة ، والطمع فى الخلافة من كل من له وشيجة رحم بالخلفاء — خروج الخلفاء أنفسهم عن المنهج الشرعى ، والانتهاج لغيره ، ولذلك نسب كثير من المحققين اختلال هذه الخلافة لعدول عبد الرحمن الأول (الداخل) عن البيعة ، وميله لولاية العهد ؛ فقد عهد بالخلافة لمن بعده من ولده ، وخص بها (هشاما) الأول فكبر ذلك على أخويه الكبيرين : سليمان وعبد الله ، وخرجا عليه ، وحاولا سلب الخلافة منه ، فتغلب عليهما وعفا عنهما ، ثم خرجا بعده على ولده الحاكم ، وطلبا قسمة البلاد معه . ويقولون : إن نار هذه الفتنة كانت مضرمة ، ولكن قوة الحاكم القائم بالملك وقفت الناس عند حدهم زمنا ، وردتهم على أعقابهم عهدا . ثم لما انصرم هذا العصر حدث ما حدث . وأنه لو جرى المسلمون كعادتهم فى الاختيار والانتخاب لسلموا من هذا البلاء ؛ فإن هذا الحادث أوجب فى نفوس العمال طمعا كبيرا ، وحدث كل نفسه فى خلوته بما حدث ، فكانوا يخفون أمرهم فى إبان القوة خوفا على مناصبهم ، ويظهرون بكمال الطاعة والانقياد ، ويستعدون لنيل مقاصدهم سرا ، ويتربصون بالخلفاء الدوائر ، حتى أضرم القتال فى شمال البلاد ولاة سَرَقُسْطَة . وطليطلة ، وجوسقة . ثم توالت الثورات حتى زلزلت المملكة بزلازلها . وأورثتها خبالا بوبالها ، وقويت الأمراض ، حتى أضعفت خراج الدولة .

وفى الحقيقة إن منهاج الخلافة الشرعى — وهو جعل الحل والعقد ، والنكث والفتل ، وسائر الشئون العامة مقيدا بالشورى المتبعة — يحبب للأمة معالى الأمور ؛ وهذه أيام الخلفاء الأربعة وعصرهم من أعدل الشواهد على ذلك . والعدول عن سير هؤلاء الخلفاء يدفع بالأمة إلى السفاسف ، ويحط من مهابة صاحب السلطان ، ويخفض من شوكته ، ويستفحل فى عصره أمر الثوار والخارجين عليه ؛ لأنهم يلحظون من ذلك أنه انغمس فى النعيم المضعف للنفوس عن الحرب والجهاد ، وأهمل أمر الصانع والزارع ، وأن الأمة أصبحت فى مدته أتباعا لكل ناعق ، وأن التربية القومية مفقودة برمتها ، ويتبع هذا عدم تعميم التعليم والتهذيب اللذين هما من أهم ماجاء به الدين الحنيف الإسلامى ، فإذا وقع ذلك فليرتقب كل عناء و بلاء .

ملوك الطوائف

هذا العنوان يصح أن يطلق على الملوك من أصحاب الأطراف الذين يملكون (كل فى بلاده) على أثر انقراض دولة قوية . وهو حال يعرض لكل دولة ، متى وضع حكامها وأمراؤها من شأنها ، وأضعفوا من صولتها ، حتى علم العدو بمكانها من الضعف ، وأصبح أمر انحطاطها ظاهرا ، والقائم عليها لا يقدر على جمع النفوس المفترقة ، وتأليف الأهواء المختلفة ، وكف الأكف العادية ، ورد جماح العزائم الفاسدة . يعرض لها بعد أن يفارقها حسن الرأى ، وجيد القريحة وسديد النظر ، وصحة اختبار الأحوال ، وحسن اختيار الرجال ، وغير ذلك من المعانى التى تتشعب من هذه الأصول الشريفة ، وتتعلق بهذه الأصول الرفيعة . فإذا أصبح القائم غير ناهض بما حمل ، ولا مستقل بما قلد ، ولا نافذ الأمر فيما هو له أهل من الأمر والنهى ، ولا مؤد ما استودعه الله من أمانة الحكم على عباده — فهناك الانقسام ، وهناك ملوك الطوائف .

ظهرت ملوك الطوائف (حال اختلال الدولة الأموية) على أثر انقراض الدولة الرومانية . وقامت كذلك على أنقاض الدولة الكيانية فى بلاد الفرس ، بعد أن قتل (دارا) آخر ملوكها ، واستولى الإسكندر على مملكته . ونهض بها فى المغرب أيضا أهل السوء الذين لا يميزون طالب الحق من منكره ، وجاحد الصدق من منتظره . كان ملوك الطوائف بالأندلس عقب انتثار عقد الخلافة الأموية ، وما انتاب هذه الخلافة من الضعف لآخر عهدها ، وما كان من خلع الجند لهشام آخر

خلفائها ، واستبداد الأمراء والرؤساء والوزراء وكبار العرب والبربر بالأطراف ، واقتسامهم خططها ، وتغلب بعضهم على بعض واستقلال قوم على قوم ، واشتداد الفرقة بينهم ، وبلوغهم فى الجهل درجة أدت بهم إلى التزلف لأعدائهم (ملوك إسبانيا) ، فيدفعون الجزية لهم "عن يد وهم صاغرون" صونا لملكهم (ساء ما يتوهمون) ويأنفون من ارتباط بعضهم مع بعض وهم من عنصر واحد ، ودين واحد ، وملة واحدة .

هدمت الدولة الأموية بعد أن كانت أرفع الدول عمادا ، وأعظمها شأنا وأضخمها سلطانا ، وأكثرها جنودا ، وأمدها سلطنة ، وأعلاها ذكرا وأبعدها اسما : بسبب سوء الخلال ، وفساد الطباع ، ودناءة الأخلاق ، وخبث السرائر التى خالطت القلوب بتغرير الدخلاء ، وفساد المفسدين من أعدائهم . ما زالوا بهم حتى أنسوهم خاصة وعامة مكارم الأخلاق : فلا وفاء بعهد ولا أمانة ، فانقلب بعضهم على بعض ، وجعلوا بأسهم بينهم ، وفشت كراهة الأموى للقرشى ، وتحول الأمر من المضرى إلى اليمانى .

تفرق ملوك الطوائف ، واقتسموا الأندلس ، فتجزأت بعد أن كانت مجتمعة ، وأصبح بإشبيلة وأعمالها محمد بن عباد ، وببطليوس وأعمالها محمد بن عبد الله المعروف بالأفطس ، وبطليطلة وأعمالها ابن يعيش ، وبسَرَقُسْطَة وأعمالها سليمان بن هود الجذامى ، وبطَرْطُوس وأعمالها لبيب العامرى ، وبِبَلَنْسِيَة وأعمالها المنصور المعافرى ، وبالسَّهْلَة وأعمالها عبود بن رزين البربرى ، وبوانية وأعمالها الموفق العامرى ، وبمرسية وأعمالها بنو ظاهر ، وبالمَرِيَّة وأعمالها خيران العامرى ، وبمَالَقَة وأعمالها بنو حمود ، وبغَرْناطَة وأعمالها حبوس الصنهاجى .

بهذه الصفة تفرقت دولة بنى أمية ، وتباهت ملوك الطوائف فى أحوال الملك كأنها أحسنت صنعا ، فأصبحوا غاية فى الترف ، ونهاية فى الحضارة حتى قلدوا الخلفاء فى الألقاب والنعوت ، وجعلوا لهم حجابا ، يتكلمون عنهم وهم وراء الستر ، وصدق عليهم قول (شارل مارتيل حينما فزع إليه) سكان فرنسا ليستشيروه فيما يفعلونه مع العرب فى عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٠٥هـ : أمهلوا العرب حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا من المساكن ، ويتنافسوا فى الرياسة ويستعين بعضهم على بعض ، وتفارقهم هذه الصفات ، التى تغنى عن كثرة العدد والقلوب التى دونها حصانة الدروع ثم خذوهم بعضهم ببعض .

أخذ ملك الإسلام فى الأندلس فى التضعضع ، وملوكه فى التفرق ، وحدث منهم ما أوجب علماء الأمة ، وأمناء الملة أن يفتوا بجواز حربهم لانحرافهم عن الاستقامة ، ومساعدة بعضهم للإسبانيين ، وظهر فى أثناء ذلك أمر يوسف بن تاشفين ، فكتب إليه المعتمد بن عباد أمير إشبيلية ، يعلمه بحال الأندلس ويسأله النصر والإعانة ، فذهب إليه ، والتقى به ، وكان ما كان من دخول الأندلس ، وحربه مع (الفونس السادس) ملك قَشْتَالَة فى واقعة من أكبر وأشهر وقائع المسلمين بالأندلس هى وقعة الزلاقة ، ثم تغلب ابن تاشفين على ملوك الطوائف واستولى على بعض بلادهم ، وصار نافذ الكلمة فى المغرب ، ضابطا لمصالح مملكته ، مؤثرا أهل العلم والدين كثير المشورة لهم ، حتى أن الإمام الغزالى (رضى الله عنه) لما سمع بسيرته ، عزم على لقائه ، ولكن الموت حال بينهما .

انتقل الملك بعد وفاته لأولاده، ولم يكن فيهم من أهل الحيطة والصون ما يكفى للتنكيل بأعداء الله ، والدولة طائحة فى هوة الهلاك ، فانقرضوا فى سنة ٥٤٢هـ، وقامت دولة بنى الأحمر، وهى آخر الدول الإسلامية فى بلاد الأندلس ، ومنها استرجع الإسبانيون ما كان بأيدى المسلمين ، وبهم انقرضت الدولة الإسلامية من إسبانيا .

لا بأس بأن نلم بعض الإلمام بشىء من الأسباب الظاهرة التى كانت سببا لهذا التفرق والانقسام : آل الحكم إلى هشام بن الحكم ، وهو صبى صغير لا يتجاوز عمره تسع سنين ، مضعف عاجز عن القيام بالملك ، فقام به كافله من وزراء أبيه (المنصور بن أبى عامر) فحجب الصبى عن الناس ، واستبد بالملك ، واستحكمت له صيغة الرآسة، وتحول الملك إليه ؛ وآثر به عشيرته وأبناءه، وسما به التغلب، فكر بأهل الدولة، وضرب بين رجالها ، وقطع بعضهم ببعض ، وصار كأعظم ما يكون ملكا وسلطانا .

مات ، والخلفاء من بعده لعبة لاعب ؛ لأنه جدد فى الأذهان طريقة الوثوب على مقاماتهم العالية ، وحمل الخلفاء على القناعة بالأبهة واللذات ، وأنساهم عهد الرجولية ، فقام الناس من بعده ، فخلعوا هشاما وقتلوا ابنه ، ثم ولوا الحكومة عبد الرحمن بن المنصور، ثم قتلوه، وكذا المستظهر والمستكفى ، ثم خلعوا هشاما وابنه عبد الرحمن الذى انتهى به عهد الخلفاء فى الأندلس ، وعدتهم ستة عشر خليفة فى أربع وثمانين ومائتى سنة .

تدمع عين القارئ من شؤم ما جرى فى هذه البلاد ، وسوء ما وقع بها أكثر مما ضحكت سنه ، وانشرح صدره ، سرورا بدخول طارق بن زياد

أولا ، وموسى بن نصير ثانيا ، وما شيدا فيها من دعائم المجد ، وأعلام الهدى :

إن حزنا فى ساعة المو ت أضعاف سرور فى ساعة الميلاد

قاتل الله الجهل والشقاق ! أباد هذه المملكة بعد أن كانت مجتمع أعلام الأنام ، ومقر سرير الخلافة ، ومركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، فليقس من كان شأنه القياس من الناس حالا بحال ، وفتحا بفتح ؛ لينكشف له ما حدث ، وليتحقق ما جرى .

قامت دولة بنى الأحمر المنسوبين إلى سيدنا سعد بن عبادة (سيد الخزرج) ونيران الدسائس مشتعلة بيد الأعداء ، وقد كثر أمر الثوار ، وما زال الفشل مستمرا منهم بين العدو مرة ، وبين المسلمين أخرى . والقائمون بالأمر بعضهم يقتل ، وبعضهم يخلع ، والمدن والقرى فى فتن وخطوب يطول شرحها ، والبلاد تتنقص من أطرافها بسبب الخذلان الذى أدى إليه الشقاق ، حتى لم يبق لبنى الأحمر إلا غرناطة وأعمالها ، فأقبل العدو بجيشه المركب من جيوش قشتالة وأراغون تمده (أوربة) فلم يكن منهم إلا أنهم أفسدوا الزرع ، وقطعوا الأشجار ، وهدموا القرى ، وشددوا الحصار على المسلمين ، إلى أن جاء فصل الشتاء ، ونزل الثلج ، وانسد باب المرافق ، وانقطع الجالب ، وقل المطعوم والطاعم ، واشتد الغلاء ، وعظم البلاء ، فلم يكن من أهل العلم والوجاهة إلا ملاقاة السلطان أبى عبد الله ، فاجتمع الناس إليه ، ورأوا أن ارتكاب أخف الضررين بالصلح أولى واتفقوا على شروط عقدت ، ثم قرئت ووافقوا عليها ، وكتبت بها البيعة ، ونزل السلطان من غرناطة عن كرسيه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

اشتملت هـذه الشروط على سبعة وستين شرطا : منها تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهل والمـال ، و إقامة الشريعة على ما كانت عليه : فلا يحكم على أحد إلا بشريعتـه ، ولا يولى على المسلمين نصرانى ، ولا يهودى ، وألا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، ولا يجبر أحد على ترك دينه ، ولا يمنع مؤذن ولا صائم ولا مصل عما هو قائم به ، إلى آخر ما هو مدون بها ، من بقية الشروط التى وضعت باتفاق الطرفين .

وافق كلهم على هذه الشروط ، حتى صـاحب رومة ، وكتب بخط يده عليهـا ولكن الإسبانيين لم يراعوها إلا ريثمـا تقدموا فى الأمر ، وتمكنت قدمهم ، وعلموا أن لا ناصر للمسلمين من ظلمهم ، فعـدلوا عن مراعاة تلك الشروط معهم ، وأذاقوهم أنواع العذاب والاضطهاد وخاصة لمـا شكلت المحكمة المعروفة بمحكمة التفتيش ؛ فكان لها من القسوة ما يخجل كل من كان فى قلبه ذرة من المروءة والإنسانية .

أنشئت هـذه المحاكم بأمر الباباوات (مصدر الرحمـة والإحسان) ؛ خدمة للدين فى ظاهر الأمر ، ولكنها سياسية باطنا : فأتى الإسبانيون أعمالا بربرية وحشية : فأحرقوا الزرع ، وهدموا الدور ، وغيروا و بدلوا المعالم الثابتـة والآثار الجميلة ظلما وعدوانا ، فإذا آثار المسـلمين بتلك الأطراف بائدة لم يبق منها إلا ما صح عليه قول القائل :

كاد الليـالى وكادته مجالدة ... وانكف عاديهما من بعد تقتال

ثم انثنت و بها من صبره حرق ... و إن كسته لكيد ثوب أسمال

كلت يد الأعداء عن إبادته كما ضعفت يد الدهر عن فنائه ؛ ففيه للآن بقيـة يدهش منها الإنسان ، تدل على المعارف والفنون التى كانت فى تلك

البلاد تنشد بلسان الآثار والعمائر ، والمبانى والمدن والدساكر ، وعجائب الرسوم ، ودقة النقوش ، وإحكام البناء — أن أهلها بلغوا النهاية فى الارتقاء ، والغاية فى مدارج العلاء ، وتنذر النـاس بأن الجهل معول يقتلع الرواسى الشامخـة ، ويحط إلى حضيض الـثرى إذا كان العـلم يرفعها للثريا .

لايستطيع إنسان أن يجحد حسن حال إسبانيا فى عصر الدول الإسلامية ؛ لأن مؤرخى الغرب اتفقوا مع مؤرخى العرب على أن الأندلس كانت فى مدة الدول الإسلاميـة فى رواج عظيم ، وأنهـا اشتهرت فى خلافة عبد الرحمن الثالث اشتهارا لم يكن لها من قبل ، ولا أتى لها من بعد لاعتنائه بالمعارف و إنشائه المدارس وتنشيطه الصنائع وتوسيعه دائرة الزراعة ، حتى ذاع صيتها وتقاطرت إليها الطلاب من كل البلاد ، وسادت على العالم . وقد اعتمدنا فى نقل هذه العبارة الصغيرة التى يؤخذ منها ما كانت عليه وما صارت إليه من دائرة المعارف فى الكلام على إسبانيا صفحة ٣٣١ جزء ٣ ؛ لأننـا متحققون بأنها تستق ، وتستمد فى نقولها على الغالب من مؤلفات أجنبية : قال المؤلف : إن الصناعة فى إسبانيا كانت ذات رواج عظيم فى القرون المـاضية ، واشتهرت بها فى القرون المتوسطة منسوجات الصوف والحرير المصنوعة فى إشبيلية وغرناطة و بياسة ، (والأجواخ) المصنوعة فى مرسية ، والأسلحة المصنوعة فى طليطلة ، غير أن جلاء اليهود والعرب من إسبانيا ، وحصر حقوق البيع والشراء بمصنوعات معامل الحكومة ، والرسوم العظيمة التى جعلتها الحكومة على مصنوعات المعامل الخصوصية التى كانت تتضاعف بطمع مأمورى الرسومات — سببت سقوط الصناعة فى إسبانيا .

كان فى إشبيلية فى القديم ١٦ ألف محل لصناعة الحرير ، عمالها ١٣٠ ألف شخص ، وإلى سنة ١٦٧٣م لم يبق منها سوى ٤٠٥ محال . وكان فى شقورة معامل يخرج منها سنويا ٢٥ ألف شقة من الحرير، وفى سنة ١٧٨٨ م لم يخرج إلا ٤٠٠ شقة .

وعلى هذا القدر يقاس . والواقف على تواريخ إسبانيا يعلم ما كان لليهود فيها من سمو المقام والتقدم فى الآداب أزمان العرب والإسلام ، وأن الكثيرين منهم كانوا يتقنون العلوم العبرانية أى إتقان . ولم يقل أحد إن العرب أذاقوهم مرارة الجلاء عن بلادهم ، كما وقع ذلك لهم فى عهد الحكومة الإسبانية ، بل الأمر على العكس ؛ فإن المؤرخين متفقون على أن أهم الأسباب التى سهلت لليهود والنصارى سبل الانضمام والارتباط فى هذه البلاد ضد العرب — هى أن الدول الإسلامية حفظت لهم استقلالهم فلم يعسر عليهم أن يكونوا مملكة بعد . ومن هذا أيضا ما فعلته الدولة العثمانيـة ، مع أتباعها من غير المسلمين فى الروملى وغيره : حفظت لهم كيانهم فضلا عن استقلالهم ، فلما وثبوا للخروج عليها بإغراء الدول لم يجدوا ما يعوقهم عن العمل لغرضهم ؛ لأنهم مجتمعون متحدون .

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ٩ من جمادى الثانية سنة ١٣٥٣
(١٨ من سبتمبر سنة ١٩٣٤) م
مدير المطبعة الأميرية
محمد أمين محمد بهجت

المطبعة الأميرية ٦٦٥-١٩٣٤-٢٠٠٠